



353

أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو

تأليف: هنري برونل
ترجمة: محمد الدنيا
مراجعة: د. محمود رزوقي

أبريل 2005

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



الفنـــان : طباطباي مژده

بـدون عنوان

ألوان مائية

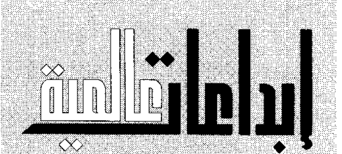
٣٥ × ٣٢ سـم



أجمل حكايات الزن
يتبعها فن الهايكو

تأليف: هنري برونل
ترجمة: محمد الدنيا
مراجعة: د. محمود رزوقي

العدد 333 أبريل 2005



تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10 د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12 د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: **28623** - الصفاة - الرمز البريدي**13147**
دولة الكويت

ردمك ٧ - ١٦٠ - ٠ - ٩٩٩٠٦
رقم الإيداع : 2005/00008

• أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو

العنوان الأصلي :

Les Plus Beaux

Contes Zen

Suivis de L'art des haikus

by: Henri Brunel

عن دار نشر

Calman - Lévy

1999 - 2000

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 2005م

إبداعات عالمية - العدد 353

صدر العدد الأول في أكتوبر ١٩٦٩م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(١٩٢٣ - ١٩٩٠)

«اجلس بصمت، لا
تفعل شيئا. الربيع
آت، والعشب ينمو
بمفرده».
زني كوشو

تمهيد

ما هو الـ «زن» Zen؟ لهذا السؤال المناسب ألف إجابة، ولا إجابة عنه. الزن هو في الواقع «مذهب اللاشيء»، وماذا نقول حول اللاشيء؟ ربما أمكنني التهرب من الإجابة بأن أتحدث في أصول الزن(*)، والمظاهر التي اتخذها عبر القرون في الهند، والصين، واليابان، وأن أشرح عن علم ودراية ما لم يكنه (دينا، نظاما فلسفيا)، أو أن أروي حياة أساطين الزن الشهيرين؛ وربما استطعت استخدام مصطلحات عويصة، أو فسّرت بجمل غامضة، أو تواريت خلف مبهم العبارات.

«عزيزي المؤلف، من فضلك، دع كلامك في إطار الموضوع، ما هو الزن؟

- لا بد أنكم سمعتموهم يتحدثون عن حدائق الزن، وفن الزن، وشعر، ومسرح، وتصوير الزن.

- أجب عن السؤال المطروح: ما هو الزن؟

- عنادكم لا يحتمل! كيف أُفهمكم ما لا يُفهم؟

- على الأقل، حاول...

- الزن هو سلوك ذهني، طريقة مختلفة لإدراك الواقع، إنه» أن ترى «الشيء عاريا مجردا، دون معرفة ذهنية قبلية، وبلا تشويش انفعالي: زهرة، حجرا، مشهدا، طيرا، أو ضفدعة...

بركة ماء قديمة
ضفدعة تغطس فيها
صوتُ الماء (1)

(*) كل الحكايات هي من أصل ياباني، باستثناء بعضها، التي أشير إلى أصلها تحت العنوان.

ما يكون، هو كائن. «أرفعُ إصبعي، أجلس صامتا... وهنا يقوم الزن أيضا»، كتب المعلم د. - ت. سوزوكي [٢]، يتجلى اللا متناهي، لمن يجيد «الرؤية» دون أن تحجبها رغباتُه، وذهنه، ومخاوفه، و«أناه»، في أحداث الحياة اليومية الأكثر تواضعا. كل شيء بالنسبة إلى الزن هو رسالةُ مطلقٍ، هو المطلق قبلا.

أعرف جيدا أن هذا التأكيد غير كاف، حتى لو أيقظ فينا شدوا غير معهود. لذلك سأضيئه من الخلف، ومن الجانب، ومن الأمام، وبانحراف، فأقدّم، في القسم الأول، إحدى وعشرين حكاية، اخترتها بعناية من بين مئات أخرى - هندية، وصينية، ويابانية - ، فلاءمتُها، وبثثت فيها روح الحياة، وأقدم في القسم الثاني قصائدَ قصيرة، من ثلاثة أبيات يتيمة، الهايكو haïkus، التي هي شعر الزن. تحكي أسطورة قديمة أن كاهنا اسمه «إكاتو» لم يكن يفقه شيئا من جوهر الزن، على الرغم من سنوات التعلم والجهد الجدير بالثناء. فجأة، جاءته «اليقظة»، بعد أن تلقى عن غير قصد ضربة بقصبة خيزران على رأسه العنيد. لا نعرف أبدا، حكاية...

هنري برونل

مقدمة
بوذية الزن اليابانية

البوذية مثلما انتقلت إلى اليابان، عبر كوريا في منتصف القرن السادس الميلادي، كانت قد كيفت في الصين قبل ذلك. وهذه البوذية هي في جوهرها مذاهب المركبة الكبرى (grande véhicule)مهايانا، التي تعود في أصولها إلى البوذية الهندية، ولكن مع ما طرأ عليها من تطورات في قلب الثقافة الصينية منذ نهاية القرن الأول الميلادي. وما خلا بعض الاستثناءات النادرة جدا، فإنه لم يكن لليابان اتصالات مباشرة مع بوذية الميادين الثقافية الكبرى الأخرى في الشرق الأقصى، في الهند، والتيبت وجنوب شرق آسيا. ويمكننا حتى أن نقدر بأن دين ساكياموني (Sakyamuni) بوذا الأكبر لم يرد إلى اليابان في البدايات الأولى إلا كأحد مكونات بناء الحضارة الصينية الواسع.

نتج عن هذا الأسلوب من الانتقال أن أصبحت اللغة المرجعية - اللغة المقدسة بشكل ما - للبوذيين اليابانيين، هي اللغة الصينية الأدبية في نسختها البوذية، أي تقريبا تلك اللغة الثقافية الكبرى التي فرضت نفسها على ميادين النشاط الثقافي الأخرى. وخلافا لما حدث في التيبت، لم يشعر اليابانيون بالحاجة إلى أن يترجموا، إلى اليابانية، مدونات النصوص الضخمة التي تمثلت في قانون الكتابات، وباستثناء بعض الأمثلة النادرة المعزولة من نصوص السوترا

Sutra الكبرى (مجموعة من النصوص الهادية في الهندوسية والبوذية) المترجمة منذ القرن الثامن، فإننا لم نشهد ظهور كبريات مجموعات الترجمات المقدسة إلا بعد التحديث الياباني، وكتبت هذه الترجمات بعد ذلك باللغة اليابانية الحديثة. ولنتذكر أن الصينية الأدبية لم تكن بالمعنى الدقيق للعبارة لغة غريبة، إذ كانت لغة الثقافة بامتياز، ومتاحة بشكل مباشر للمتعلمين، كما كانت وسيلة تعبيرهم المميزة.

من جانب آخر، يتعقد تاريخ البوذية في اليابان من حيث إنه كانت توجد، قبل دخولها إلى اليابان، ديانة قومية محلية (الشنتوية Shinto، الديانة اليابانية الأصلية، وهي مزيج من تأليه أرواح الطبيعة الخالقة وتبجيل الأجداد وماضيهم وعبادة البطولات...)، منظمة كفاية، كان لها - رغم فقر بنيتها من وجهة النظر العقائدية - مجمع آلهة محلي وميثولوجيا جيدة التكوين، ولكن غير واسعة الانتشار بين الشعب، ومنظومة من العقائد والطقوس الشعبية الراسخة بعمق، والتي لم يستطع الدين الجديد اقتلاعها، وهو ما لم يسع إلى القيام به هذا الدين من جهة أخرى. على العكس، قام نوع من التوفيقية المتكيفة على نحو رائع مع التدين الشعبي، وقد دفع ذلك الحركتين، البوذية من جهة، وما سمي في وقت متأخر الشنتوية من جهة أخرى، إلى ألا تسيء إحداهما إلى الأخرى، وإلى أن تتعايشا، وذلك حتى القرن التاسع عشر، عندما أجبرت أيديولوجيا ما قبل الحداثة، ومن ثم

أيديولوجيا الحداثة، الدينيين على الانشقاق. والشنتو Shinto كلمة ليست يابانية، بل صيغت في القرن السادس مع دخول البوذية للتعبير عن التراث الديني الأقدم وجودا في البلاد، أي طريق الكامي kami، ومن سماته الأبرز «الحدسية»، أي الإحساس الوجداني العميق بالقوة الروحية المسيطرة على الأشياء. وليس للكامي معنى محدد وواضح، فهي ليست مجرد قوة روحية، إذ يمكن أن تطلق على الحيوانات، من طيور ووحوش، وعلى النباتات، وموجودات الطبيعة وظواهرها، كالجبال والبحار والعواصف والرياح...، ويدرك المؤمن الياباني الكامي على نحو حدسي، في أعماق وجدانه، ويتصل به اتصالا مباشرا من دون أن تكون لديه فكرة عن الكامي من حيث التصور أو اللاهوت.

أما عقائد وممارسات الزن (Zen اختصار zenna، من السنسكريتية dhyana، دهيانا، أي «التأمل»)، وهي طائفة بوذية تمزج بين الشنتوية والتشانية التي نقلها الراهب إيساي (أو يوساي) من الصين نحو ١١٩٢، فكانت قد دخلت قبل ذلك إلى اليابان مرات عدة على نحو جزئي، وجاءت كرد فعل على تعقيد التعاليم المدرسية، المتناقضة أحيانا، واختزلت هذه التعاليم بإعطاء الأولوية للحصول على اليقظة (Eveil باليابانية satori، وهي ترجمة للكلمة السنسكريتية bodhi)، ليس عبر ممارسات تتراكم طيلة الوجود واستنادا إلى كتابات مقدسة وتعليقات، بل من خلال العلاقة الوثيقة مع المعلم، الذي يقود التلميذ، بتوجيهه حسب قدراته، إلى

الانعتاق، والخلاص الروحي.

بوذية الزن هي مذهب التأمل المتمثل في تجربة الاستنارة، بودي Bodhi، التي كانت لبوذا (حكيم ساكياس، مثلما يسمى أيضا نسبة إلى اسم قومه)، حين جاءته في جلسة تأمل تحت شجرة البو، شمال الهند في القرن السادس قبل الميلاد. وتأملية الزن غرضها إيقاظ بوذا الموجود في النفس من أجل تحقيق الذات عبر الحياة اليومية والعمل وضبط النفس والولوج إلى جوهر الأشياء بالحدس لا بالعقل، ومن ثم معرفة الحقيقة الأزلية.

كان رائد الزن المستقل هو داينيشي نونين (Dainichi Nonin) نهاية القرن الثاني عشر)، من أتباع مدرسة التنداي (فرقة بوذية يابانية أدخلها الكاهن سايكو [٧٦٧ - ٨٢٢] إلى اليابان، وكانت ترى أن الحقيقة أو الواقع هو واحد، غير أنه يمكن معرفة هذا الواحد بثلاثة آلاف من تجلياته)، وقد حاول، دون نجاح، إيجاد «مدرسة بوديدارماBodhidharma أو بوذا دارما، من اسم الراهب الهندي الذي كان قد نقل الزن إلى الصين في القرن السادس)؛ لكن بداية تيار الزن الحقيقي في اليابان تعود إلى أعمال «إيساي» (أو يوساي، ١١٤١ - ١٢١٥)، وهو راهب من التنداي، توجه إلى الصين، مسكوناً بهمّ وحدة مدرسته، لدراسة الزن في مدرسة «لينغي» " Linji، التي أراد إدخالها في التنداي. وإزاء معارضة رهبان جبل «هيي»، الذين أرادوا حظر تعاليمه، وبدعم من شوغون (قائد عام مقاطعة كاماكورا)، أسس فرقته الخاصة، التي أصبحت

«رنزاي - شو» (اللفظ الياباني لكلمة Linjiالصينية). وقد ركز زن فرع رنزاي على الحصول على اليقظة بالتأمل حول الكوان koan، سؤال المفارقة الذي تجبر استحالتُه المنطقية الفكرَ على تحطيم عثراته. والكوان هو وسيلة تعليمية وفدت إلى الصين في القرن الحادي عشر، وكان يفرضها المعلمون الرهبان على تلامذتهم المبتدئين خلال مرحلة التعلم والتأمل. وبعد اثنتي عشرة سنة إلى خمس عشرة سنة من هذه الممارسات في المعبد، وحالما يتأكد المعلم من أن التلميذ قد بلغ معنى البوذية الداخلي، يمكن لهذا الأخير أن ينال مرتبة المعلم بدوره.

تمثلت المدرسة الثانية في زن كاماكورا، مدرسة «سوتو - شو» Soto - shû، التي أسسها دوغن (١٢٠٠ - ١٢٥٣) Dôgen، الذي ركز على تعليم التنداي، وكان قد درس الزن مع إيساي، قبل توجهه إلى الصين، حيث عمق ممارسات فرع كاودونغ Caodong لفظ Sôtôالصيني، الذي حث على التأمل في وضعية الجلوس أو «التأمل جلوساً»، زازن zazen، دون حامل فكري خاص لتحقيق الساتوري (اليقظة). لكن المعلمين الأشهر، خصوصا أتباع مدرسة رنزاي، كثيرا ما أكدوا أن الجلوس والتأمل شيئان مختلفان، ولا يشكلان كلا واحدا إلا في بعض الظروف. وحينما فرض«دوغن على تلامذته هذه الوضعية كتمرين رئيسي، فإنه قد أرفقه بتوجيهات دقيقة تشمل تطبيقها كل نشاطات الليل والنهار، بدءا بفهم الوجود وحتى سلوك التزيّن. وإذا كان هذا الراهب قد ترك أعمالا بالصينية

الكلاسيكية، فإنه أودع جل فكره، باليابانية، في مؤلفه الكبير الذي أسماه «كنز عين الشريعة الصحيحة»، أهم أثر في الفكر البوذي الياباني. وأدت مدرستا الزن هاتان دورا بارزا في اليابان. وكانت الرنزاي وسيط تيار ثقافي صينيا كاملا تجاوز عتبات البوذية؛ وكان بين أتباعها أدباء، وخطاطون، وشعراء، وفنانون أوجدوا أساليب أساسية في فن التصوير، استوحوا موضوعاته من عقيدتهم، لكنهم تجاوزوها بعد ذلك إلى الصور الدنيوية، وكان النبلاء ينتسبون إليها بحماس. أما السوتو، فقد تبوأت مكانتها بين الساموراي، لبساطتها واعتدال صرامة ممارساتها. ومع ذلك لم يبق الشعب في منأى عنهما، وحتى اليوم.

يعتبر مذهب تشان chan، الزن بالتسمية اليابانية، ويعني التأمل العميق للوصول إلى المعرفة وبلوغ الاستنارة، أحد ثمار بوذية الصين، وقد أسسه الراهب الهندي بوديدارما، الذي تقول الأسطورة إنه كان أميرا هنديا جاء إلى الصين مع بداية القرن السادس. ونقله الراهب إيساي إلى اليابان العام ١١٩٢، حيث أخذ اسم زن. ومن تعاليم هذا المذهب الأساسية «أن مصدر الخلاص هو الاستنارة الداخلية، التي تأتي في لمحة خاطفة فجأةً، مثلما حدث لبوذا»، وأن الحقيقة الوحيدة هي طبيعة بوذا، وهو ما يمكن أن نراه بنظرة متفحصة لداخل أنفسنا. ويمكن تلمس هذه الاستنارة، حسب أصحاب هذا المذهب، في ممارسة الأعمال البسيطة، كفلاحة الأرض، والتجارة وتأدية الخدمات للآخرين.

الشعر

من بين كل الأجناس الأدبية اليابانية، ليس هنالك أبلغ تمثيلا للطابع الوطني من شعر اللغة اليابانية (واكا waka)، الموجود في أقدم حوامل اللغة، والذي تتمثل إحدى أكثر حتمياته صرامة في منع استعمال المفردات الصينية الأصل. وقد نظر إلى الشعر، في شكل قصيدة التانكا tanka، أو «القصيدة القصيرة» (خمسة أبيات من ٥، ٧، ٥، ٧، ٧ مقاطع)، على أنه المعبر بامتياز عن الروح اليابانية، حيث ليس للمؤثرات الآتية من القارة سوى صدى بعيد. ومن المهم التأكيد أن عددا من القصائد، ومنذ عصر هيان (٧٩٤ - ١١٨٥)

Heian، كان مكرسا للمديح أو لتفسير تعاليم بوذا. ولنتذكر أن ظهور الفكرة التي تفيد، في عصر كاماكورا (Kamakura (١١٨٥ أو ١١٩٢ - ١١٣٣)، بأن الـ waka تماثل الـ dharani، النصوص السنسكريتية المقدسة، وبالتالي لها الفاعلية الماورائية نفسها، قد منح البوذيين اليابانيين الشعور بأن لغتهم تتسم بالطابع المقدس ذاته الذي كان للصينية والسنسكريتية.

بعد خروج الشعر من إطار البلاط الضيق، لا سيما أن الشعب الياباني محب جدا للشعر، وبالأخص الغنائي منه، استمر في تهذيب قصيدة الـ واكا عبر القرون، وغدت أكثر شكلية وتكلفا. وبتشجيع من الإمبراطور الشاعر جو - توبا

Go - Tobaبشكل خاص، منذ نهاية القرن الثاني عشر، انتشر شكل «القصائد المتسلسلة الترابط»، التي تشكلت من أبيات ٥ - ٧ - ٥ (هوكو hokku) و ٧ - ٧ (أجكو ageku)، وقد تطورت عن انقسام الـ واكا. ولكن، على نحو مواز للرنغا النبيلة المستوحاة من الواكا التقليدية، تطورت «الرنغا الحرة» (haikai)، التي مارستها في أوقات لاحقة كل طبقات المجتمع، بمن في ذلك الفلاحون. ثم جرت العادة على عدم الإبقاء من هذه «التسلسلات» إلا على الهوكو الأفضل، وانتهى المطاف بالنظر إلى هذه الأبيات الانطباعية القليلة المؤلفة من سبعة عشر مقطعا على أنها أسلوب تعبيري كامل بذاته، وهكذا ولدت قصيدة الهايكاي - هوكو، أو الهايكو haiku اختصارا.

والهايكو هي قصيدة من ثلاثة أسطر تتشكل في مجموعها من سبعة عشر مقطعا لفظيا، وتنطوي على صور من الطبيعة أو انطباعات حولها مع كل ما تتضمنه من طقوس وعادات وكائنات حية، على أن تكون المفردات يابانية أصلية. ولا بد أن تحمل الصورة الشعرية المثيرة الظاهرة للعيان معنى أو معاني أخرى خفية، قد يخفى كشفها على القارئ غير الملم، ولو قليلا، برموز اليابان وعاداتها وتاريخها.

من أبرز شعراء الهايكو، يذكر «ماتسو مونفوزا»، الملقب بـ «باشو» Bashô (١٦٤٤ - ١٦٩٤)، الذي يعتبر بشكل عام الممثل الأكثر أصالة للعبقرية الشعرية اليابانية؛ وبوزون Buson (١٧١٥ - ١٧٨٣) ، الذي كان رساما أيضا، وقد غادر قريته منذ طفولته إلى إدو، حيث تتلمذ على يدي «هايانو هاغين» تلميذ

باشو، وشاعر الهايكو الشهير. ولما مات معلمه العام ١٧٤٢، غادر العاصمة ليعيش حياة التشرد والبؤس، ويطوف المقاطعات الشمالية على خطى باشو. وهناك شعراء هايكو آخرون لا يقلون شهرة، مثل عيسى، وكيكاكو، وسبانو.

المترجم

الجزء الأول
حكايات زن

في الربيع زهور، في الخريف القمر
في الصيف نسيم منعش، في الشتاء الثلج
إذا لم يكن ذهنك مثقَلا بخليط تافه
تنفتح الحياة أمامك رائعة

« وو - من - كوان »

حكاية الزن تجلي الذهن، وتصدم المبادىء، وتقلب طرق التفكير، وتسوّي الأحكام المسبقة. «ينبغي فعلا إفراغ الفنجان إن أردنا أن نملأه من جديد»[٢]، يقول معلم الشاي. هدف الزن هو أن يعيد لنا «وجهنا الأصيل»، براءتنا. يدعونا إلى أن نختبر اتحادنا مع الكون. يكشف لنا اللامتناهي في المتناهي. يوطدنا في التناغم، في الصفاء.

ولكن من أجل ذلك، يستخدم أساليب مدهشة. لا تتردد حكاية الزن أمام أي طريقة: الضحك، والمُحال، والإثارة، والخشونة، وأيضا الحنان، والرحمة، وخوارق الأمور، والشعر، والصمت؛ إلى ذلك، تضيف السرَّ. غالبا ما نكون «على وشك «أن نفهم، و «سنفهم»، والنتيجة تذهلنا، تهرب منا. في كل أشكال فن الزن، التصوير، والمسرح، أو الشعر، تبقى حصة للا مألوف. يؤثر الزن العلامة غير الواضحة، والخط المتكسر، والرسم اللا متناظر، وحتى في حدائق الزن الشهيرة، ذات الرمال البيضاء المجرَّفة مائة مرة، يضيفون أحيانا بضع أوراق أشجار

ميتة مبعثرة، في غير مكانها، ولا فائدة لها. ففي ذلك أن شكلا مكتملا قد تم. التعريف الواضح يقتُل، يغتال. يقدم الزن دائما مخرجا ينزلق عبره الحدْسُ، ويولّد الشرارةَ الممكنة.

بتقديمي هذه الحكايات، الآتية من أعماق العصور، إنما وجدت نفسي أمام إحراج: أن أتبنى الحكاية كما هي، فأجازف بأن أصطدم بحساسياتنا الحديثة، حاجبا الرسالة بذلك، فتغدو غير مسموعة، أو أن أتبع سبيل التلطيف، أن أتفهها، فأخون، وأضيّع من الزن عتوَّ إجلائه، وقليلا من سره.

اخترت حلا وسطا: أن أبقي، من بين مئات الحكايات التقليدية، على أفضلها وقعا على الأذن. لم أضح بما هو جوهر، بلذع روح الزن، التي تسخر من أحكامنا المسبقة، من بعض أفكارنا الموروثة، من أنانياتنا، ومركزية ذواتنا، اللذع الذي يطهّر «أنانا» ego من صغائره، ويحرره من أغلاله؛ لم أتنازل عن لون حكاية الزن ومناخها الفريدين، اللذين يقوداننا إلى عالم مجهول، وينبهاننا ويطمئناننا في الوقت نفسه، ويذهلاننا ويبهراننا ضمن الحراك نفسه.

«حكايات الجبال الزرق»، مثلما يسميها على نحو شاعري نص صيني قديم، هي درب يقظة، وحاملة إحدى أرفع الرسالات الروحية للبشرية. ولكن يعثر فيها كل واحد على ما ينشده منها، نظرة مختلفة إلى حياته أو مجرد التمتع بسمع حكايات رائعة، تناسب الكبار والصغار حسب حدس كل منهم ومستوى قراءته. حكاية الزن، التي تفتح لنا أبواب عالم خلاب، هي قبل كل شيء مدرسة للحرية.

البطات الملكية والساموراي

منذ زمن بعيد جدا، على ضفاف بحيرة ميميدورو، المسماة اليوم ميزورو، شمال شرق كيوتو، عاش زوجان من البط الملكي [٤] بسلام. في فصل الصيف الجميل، كان لا بد أن نرى الذكر يقفز على الماء، بشاربيه البرتقاليين، ومنقاره الأحمر الغامق، وجناحيه المجعدين الرائعين. كانت السيدة وصغارها الذين ارتدوا ريشا رماديا عاديا، وحتى البكر الذي لبس ثوبا شبابيا، يلاحقونه بأعينهم. وفي المساء بعد أن شبع الفراخ وناموا، قال السيد لزوجته تصبحين على خير وهو يطبع نقرة حنونة على خدها الأبيض الجميل. وفي بيتها داخل شق الشجرة، تسللت الأسرة كلها إلى بلاد الأحلام. في السنة التالية، مع أول أيام الربيع، جاء شاب ساموراي [٥] وأقام كوخه على ضفاف البحيرة. كانت زوجته بانتظار المولود الأول. كانا فقيرين. ولزم أن يشتري الساموراي تجهيزاته: السراويل المنتفخة، ودروع الفخذين، والأردان المعدنية، والدرع رباعية الجوانب. كانت زوجته قد أعدت له «عصابة التصميم» [٦]، واقتصدت أمه لوقت طويل حتى أمنت له السيفين التقليديين، الطويل والقصير. ولكن، كان ينقصه بعد القناع المرعب الذي يخيف العدو. وانتظر أن يستدعيه أحدُ السادة النبلاء للخدمة عنده. في تلك الليلة، أيقظته زوجته، وقالت له: «أعرف يا زوجي الحنون أننا فقراء، ولا أحب أن أضايقك، غير أني أشعر منذ وقت برغبة لا تقاوم في أن آكل لحما، وأخشى أن يؤذي ذلك صحة ابنك». لم يرد الشاب. تناول قوسه، وخرج في

الليل. كمن على ضفة البحيرة، مترصدا فريسته. مصادفة، كان السيد البط الملكي يقوم بنزهة ليلية. مع استيقاظ الربيع، كان العش فارغا بعد. راح يفكر بعمل الصيف القاسي الذي ينتظره، حينما يتعين عليه إطعام أهل البيت كلهم. لمح الساموراي جناحيه المجعدين، اللامعين تحت ضوء القمر. رماه بسهم، وقتله. وضعه في كيس، وعاد إلى البيت وعلقه على عصا أمام الكوخ. ثم دخل إلى فراشه، ونام. أيقظه صوت غريب، نوع من «تاب، تاب!»، كأنه حركة جناحين. فكّر: «البط جريح ليس أكثر، ينتفض على طرف العصا حيث علقته». أخذ سكينا وخرج. كان البط الملكي المعلق من قائمتيه مقتولا فعلا. لكن أنثاه جاءت، وكانت تخفق فوقه بجناحيها. جعل الساموراي نصل سكّينه يلمع، ولوح بها. لم تتحرك البطة الملكية، ولم تبارح مكانها. عندئذ، أشعل نارا كي يشويهما كليهما، الذكر والأنثى. ظلت البطة تخفق بجناحيها، غير مبالية بمصيرها، باكية زوجها الميت. انتاب الساموراي حينذاك شعور غامض. وذهب لإيقاظ زوجته، وأراها مشهد الحب الزوجي، فبكت. وقالت:

«لن آكل هذا اللحم أبدا».

تقول الحوليات القديمة إن الساموراي قص جديلة شعر مؤخر رأسه كرجل محارب، وصار راهبا. وعاش حياة مثالية، فحمى الحيوانات، واعتنى بأصغر الحشرات، وتبجل اسمه. هكذا رويت أشياء الماضي.

رنكي الفيل

حكاية من أصل هندي

ريوتو، راهب بوذي شاب، يشكو من أنه لا يستطيع أن يبقي فكره هادئا؛ يظل يقفز بلا توقف، كأنه جَدْي...

«أو كأنه فيل بري»، يقول معلم الزن العجوز.

لما رأى ريوتو عيني معلمه تلتمعان، حزر أنه سيروي له حكاية، فجلس عند قدميه في ظل شجرة الموز. رنكي فيل بري، أسروه وعمره ثلاث سنوات. كان شعره رماديا فاتحا لا عيب فيه، وله نابان طويلان، دقيقان ومدببان، وأذنان بشكل المثلث التام. كان ذكرا جميلا، أمل صاحبه، وهو تاجر فيلة مروضة، أن يبيعه بثمن كبير لعاهل المملكة. ربطوا رنكي إلى وتد، بحبل متين جدا. أخذ الفيل الصغير يتخبط بشدة، بجنون، ويرفس، ويضرب الأرض تحت قوائمه الثقيلة بتوحش، ويطلق نهيما يدمي القلب. لكن الوتد مغروس جيدا، والحبل سميك. لا يستطيع رنكي التخلص من هنا أو من هناك. هاج هيجا مسعورا يائسا، وراح يعض الهواء، ويرفع خرطومه، وينهم بطريقة يرثى لها وعيناه إلى السماء.

ذات صباح، هدأ رنكي فجأة، فلم يعد سلوكه مفرطا، ولم يعد يقسو على الأرض بقوائمه الأربع، وكف عن جعل الجوار يرتعش لنهيمه. عندئذ، فك صاحبه وثاقه، فأمكنه أن يذهب هنا وهناك، حاملا برميل ماء صغيرا، محييا من يمر به، ومسديا خدماته للجماعة. كان سعيدا وحرا.

فكرك أشبه بفيل بري، قال المعلم العجوز لتلميذه. يخاف، ويقفز في كل اتجاه، وينهم في كل الأرجاء. «انتباهك» هو الحبل، و «الشيء الذي يختاره تأملك «هو الوتد المغروس في الأرض. هدئ فكرك، اجعله سلسا أليفا، سيطر عليه، وستعرف سر الحرية الحقيقية.

تأمُّل

الوتد

التنفس: استنشقْ، ازفرْ، من دون أن تغير شيئاً، أنت هذا التنفس، الذاهب الآتي، والصاعد النازل، بلا توقف، ودون زمام، يجيء ويروح...

الحبْل

الانتباه: تلاحظ، دونما نفاد صبر، بلا غضب، بلا حكم، تتابع بنظرة من الداخل، عطوفا ومحايدا، هذا التنفسَ، الآتي والذاهب. إن كانت بك رغبة في أن تتحرك، أن تضرب الأرض بقدميك، أن تهدر، أن «تتنهم»، تأمَّل أفكارك، وانفعالاتك التي تهزك، وتدفعك، ولن تتورط، ستدع الأمور تجري مجراها، وتتركها تمضي في طريقها. ستتبدد كل ثورات الغضب، كل تململاتك، كأنها دخان. ثم تنظر من جديد إلى تنفسك يجيء ويروح.

سيادته

سيادته، حضرة الحاكم موشو كيشو، مسافر؛ يسير بخطى حامليه البطيئة نحو كاماكورا، العاصمة الشوغونية الكبرى. بعد أن أسند ظهره بارتياح إلى الوسائد الحريرية، واضعا يديه على بطنه الصغير المتكور، الذي كان يقفز بلطف مع حركات المهاد تحته، غفا السيد الحاكم في هودجه قليلا، واستيقظت أحلامه. كان حرسه الخاص من الساموراي النبلاء يحيطون به، ويحمونه. تبعهم بانتظام الخدم، والحيوانات، والأمتعة. كان السيد الحاكم يرقد بهدوء وعلى وجهه الناعم ابتسامة مغتبطة. على تلال كاماكورا، في مكان وادع يطل على المدينة والبحر معا، أقام معلم الزن أونكي محترَف نحِّته خلف باغودا متواضعة. كان ينحت من الخشب تماثيل بوذا ذي البسمة الأبدية. كان يستقبل أيضا الناس من كل الطبقات، ملتمسين نصحه. أونكي رجل في مظهره صرامة وهدوء، غير أنه لا يرفض المساعدة قط. ويحترمه الجميع. في ذلك الصباح تحديدا، اقترب منه الراهب الشاب الذي يعمل حاجبا، وقد بدا منهمكا، حاملا بين يديه بخشوع بطاقة زيارة مزينة ومزخرفة على نحو رائع. وأمكن أن يقرأ فيها:

سيادة موشو كيشو، حاكم كيوتو، مستشار الشوغون(٧) الخاص.



«ليس لدي شيء أقوله لهذا الرجل»، رد أونكي بجفاء، وأسقط البطاقة وعاد إلى عمله. رجع الحاجب الشاب مضطربا خائفا إلى خادم سيادته، معلنا له رفض المعلم استقباله. انتظر وهو يرتجف

رد فعل الشخص الرفيع، الذي لم يبارح هودجه.

«أيها الراهب، سيادته بانتظارك!».

مثُل الحاجب، وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، بتواضع بين يدي السيد الحاكم، المستند بارتياح إلى وسائده الحريرية:

«لا يريد معلمك استقبالي؟ سأل سيادته، مندهشا أكثر منه مغتاظا. هل أعطاك سببا؟».

- لا يا سيدي.

- أيعلم أني قادر على إغلاق محترفه، وحبسه هو ومن معه، وخوزقة خدمه؟

- «الرحمة يا سيدي!»، صرخ الشاب المبتدئ، جاثيا على ركبتيه.

سيادته (الحاكم) ليس رجلا شريرا. تفكر لحظة، متكئا باسترخاء على وسائده الحريرية. توتر حرس الساموراي حوله، وكان بعضهم قد أمسك بالسيف.

«إحم! إحم!، قال الحاكم. سأحاول شيئا ما». تخلى عن كل ألقابه، ولم يترك على بطاقة الزيارة سوى اسمه: موشو كيشو.

«أعد إلى معلمك بطاقة زيارتي!»

كان أونكي يطلي تمثال بوذا الخشبي. أمسك البطاقة التي تناولها من الحاجب المرتعش.

«أستقبلُ هذا الرجلَ بطيب خاطر»، قال:

رميتُ هذا الشيء الصغير جدا

الذي يسمونه «أنا»

وأصبحتُ العالَمَ الفسيح(٨)

الزورق والراهبان

من سيعبر عن نكهة روح الزن، وحكمة هذه الحكايات البسيطة كأنها البداهة، والحرة كالحقيقة؟

ذات مساء من أيام الخريف، كاد الضباب الكثيف يحجب نهر سايتاما تماما. تهيأ راهب وشاب مبتدئ لعبوره على متن زورق خفيف. كان الموج أصفر وصاخبا، وهبت ريح عنيفة:

«أيها المعلم، أعرف جيدا أنهم ينتظروننا في دير ريشيكو، ولكن أليس من الحكمة أن نؤجل زيارتنا إلى الغد؟ يمكننا تناول حفنة من الأرز، والنوم في كوخ الأغصان الذي ألمحه هناك».

- « ... ...».

لما التزم معلمه الصمت، استسلم كاسوكو لركوب النهر، وبدأ يجدّف. لم يكن يظهر من الضفة الأخرى سوى خط داكن تائه في الضباب.

- «أيها المعلم، النهر عريض، والريح عاصفة تعيق تقدمنا كما نتمنى».

- « ... ...».

مرت عشر دقائق بدت لكاسوكو كأنها ساعة. جدف بصمت، بقلب يخفق جزعا.

فجأة، قال بعد أن ترك المجداف وقد رفع ذراعه:

«أيها المعلم، أيها المعلم! انظر ذاك القارب المنبجس بين الضباب، يتجه نحونا مباشرة!».

- « ... ...».

- أيها المعلم، سيصطدم بنا، سيخرقنا، سننقلب. واه، يالهُ من ربان! واه، واه، يالهُ من قائد! لو أمسكت من يقود القارب لأوسعته ضربا قويا بالعصا وأفقدته الرغبة في تعريض حياة أناس ورعين مثلنا للخطر.

- « ... ...».

- أيها المعلم، انظر القارب يقترب، سيصدمنا بمقدمه الحاد. ألمح الآن ربانه، هذا النوتي القاتل ينام براحة بال!

- « ... ...».

- أيها المعلم، القارب يوشك أن يلامسنا! يا براهما! اللعنة على هذا الربان المجرم، فلتستمر دورة تناسخه مليون سنة، فليصبح ابن آوى، ضبعا، جرذا، بقّة،...».

وقبيل لحظة الاصطدام، أبعدتْ دوامةُ ماء، أو ربما بمناورة ماهرة من المعلم، الخطرَ الوشيك، وتابع الزورق والقارب طريقهما.

- «هل رأيت ما في جوف القارب يا كاسوكو؟» سأل كاهن الزن.

- نعم أيها المعلم. الشكل الذي حسبته رجلا كان كيس حبوب.

- «قل لي يا كاسوكو، على من غضبت كل هذا الغضب؟!».

المرآة السحرية

أحب إيريكو والده كثيرا. واليوم، أصبح العجوز من عالم الأسلاف. غالبا ما كان إيريكو يفكر، كلما جلس ليحبك سلة:

«لو لم يكن لزوجتي كل هذا الصدود إزاء والدي المحترم، لكان أسعد حالا في أيامه الأخيرة؛ ولما ترددت في أن أظهر له محبة وعطف الابن لأبيه؛ ولكانت بيننا أحاديث طويلة وعذبة؛ ولحدثني عن ناس الماضي وأشيائه...»، ثم تأخذه حالة من الغم والاكتئاب.

ذات يوم من أيام التسوق، نفقت سِلال إيريكو في السوق بأسرع من المعتاد. وهكذا، راح يتمشى بلا هدف بين الأطباق، فالتقى بتاجر صيني كثيرا ما رآه يعرض أشياء غريبة:

«اقترب يا إيريكو، قال التاجر، عندي لك شيء مذهل». وبطريقة غامضة، أخرج من الصندوق شيئا مستديرا ومستويا مغطى بقماش من الحرير. وضعه بين يدي إيريكو، وسحب الغطاء باحتراس. انحنى إيريكو على السطح الثقيل واللامع. ورأى فيه صورة والده، مثلما كان أيام صباه. صرخ مضطربا:

«يا له من شيء سحري!

- نعم، قال التاجر، يسمون هذا الشيء مرآة، وسعرها كبير!». لكن إيريكو تملكه الحماس:

- «أعطيك كل ما أملك، قال. أريد هذه «المرآة السحرية». سآخذ صورة أبي المحبوب إلى البيت».

بعد حديث طويل وممل، ترك إيريكو للتاجر كل ثمن السلال التي باعها في ذلك الصباح.

ما إن وصل إلى البيت، حتى توجه إيريكو إلى السقيفة، وخبأ فيها صورة والده داخل صندوق. في الأيام التالية، بدأ يتوارى، فيصعد إلى السقيفة، ويخرج «المرآة السحرية» من الصندوق، ويمضي لحظات طويلة في تأمل الصورة الجليلة. كان سعيدا بذلك. وسرعان ما لاحظت زوجته تصرفاته الغريبة. ذات نهار قبل الغروب، بعد أن ترك سلة نصف محبوكة، لحقت به. رأته يصعد إلى السقيفة، ويفتش داخل صندوق، ويخرج منه شيئا غير معروف، ثم ينظر فيه طويلا، باستمتاع غريب. بعد ذلك، يغلف الشيء بقماشة، ويخفيه بحركات ودودة. أدركتها الحيرة. انتظرت حتى خرج، وفتحت الصندوق، واكتشفت الشيء. أزاحت القماشة الحريرية، نظرت، فرأت: «امرأة!». ثارت غضبا. نزلت، ونهرت زوجها:

«هكذا إذن، أنت تخونني. تصعد عشر مرات في اليوم إلى السقيفة لتنظر إلى امرأة غيري!».

- لا، إطلاقا! رد إيريكو. لم أشأ أن أحدثك عن الأمر لأن والدي لا يروق لك، غير أن صورته هي ما أنظر إليه كل يوم، وهذا يريح قلبي.

- يا لك من شقي كاذب! زعقت الزوجة. رأيتُ ما رأيتُه! أنت تخبئ امرأة في السقيفة!

- أؤكد لك....»

احتدمت المشاجرة، وأضحت جهنمية، عندما ظهرت راهبة

محسنة على باب المنزل. طلب الزوجان منها أن تحكم بينهما. صعدت الراهبة إلى السقيفة، وعادت:

قالت: «إنها راهبة».

«كل شقاء الناس يأتي من أنهم لا يعيشون في العالم، بل في عالمهم»

هيراكليتس

الدَغْفَلُ الملكي

حكاية من أصل هندي

هذه الحكاية هي الآن من الماضي.

كان لدى أحد الأمراء المهراجا قطيع من الدغافل، صغار الفيلة. كانت كونيا أجملها زينة، فجلدها رمادي فاتح وناعم، ولها عينان ماكرتان تحت جفنين ثقيلين، وأذنان مثلثتان جميلتان جدا. كانت لكونيا علاقات صداقة مع فيّالها، الصبي الصغير شيفي. جميلا كان منظرها وهي تمسكه من حزامه، وتضعه بحركة واحدة، دقيقة ولطيفة، قرب عنقها. وكان شيفي كلما خاطبها بحركات صغيرة من أصابع قدميه عند أسفل أذنيها، تبدأ بالسير بخفة ولين، وإذا دغدغها بكعب قدمه من أعلى إلى أسفل خاصرتها، رجعت إلى الخلف. كان الفيال الرشيق ينزل إلى الأرض عشرين مرة في اليوم، منزلقا بطول أذنها اليمنى، وتعيده في كل مرة إلى ظهرها بحركة رقيقة من خرطومها الملتف. كانا يعملان في انسجام تام حتى لنحسب حين نراهما أننا أمام لوحة رقص تعبيري. هكذا سارت الحياة، وادعة. ولكن، ذات ربيع، وقعت كونيا في حب فيل، ذكر بديع يعمل حاملا للهودج الملكي. لم يكن دريك، وهو شخصية رسمية، يستطيع إتمام عقد الزواج دون موافقة صاحب الجلالة الملك. استشاروا الكهنة العرافين في الأمر، فكونيا كريمة المحتد، وأنيسة الطبع. وجاءت الموافقة على الاقتران.

بعد ذلك بثلاث سنوات، كانت الحاشية كلها في حالة حركة وتأثر: ستضع كونيا نتاجها. لكن الدغفل الصغير لم يكن متجها

بشكل صحيح، وتأخر مجيئه. أُخبر المهراجا بذلك، وأمر بأن يطلع على الوضع ساعة بساعة. في نهاية الصباح، خرج الخرطوم، والرأس، والبدن، غير أن الذيل بقي عالقا. حل المساء، والوضع على حاله. عقد اجتماع عاجل للمجلس. أدلى الوزراء، ورجال البلاط وكبير الأمناء بآرائهم. ومن وقت لآخر، كانوا يستدعون شيفي، الفيال:

«وبعد؟ سأل جلالته».

- لا جديد يا مولاي، لا يزال الذيل عالقا!».

ويبدأ النقاش من جديد. أنهكت حالة الهياج المجلس، وأعيته الحيلة. حينها، قال كبير الأمناء:

- يا مولاي، الوضع خطير جدا! أقترح استدعاء مارا الساحرة.



- لا يمكن! هذه المرأة أهانت أم زوجة مولانا المهراجا الكبير عندما لم تنحن حين مرت بها! طردت من البلاط إلى الأبد!

وحسم الملك الموقف:

- «فلتأت حالا!».

امتثلوا للأمر. بعد أن فحصت الساحرةُ كونيا المسكينةَ التي ساء وضعها، أعطت الحكم:

«سينجو الدغفل، ويتحرر ذيله إذا وجدتم في المملكة كلها امرأة لم تحب أبدا إلا زوجها ولم تكن لديها أفكار حنونة لأحد غيره».

تشاور المجتمعون... طويلا. أخيرا، وقع الخيار على راجنا، الحسناء ذات العينين الناعمتين والحزينتين، المعروفة بحكمتها، وزوجة أحد كبار رجال البلاط.

- «هل أحببت رجلا آخر غير زوجك؟».
- لا يا مولاي، أجابت راجنا بصوت عذب وخجول.
- ألم تحلمي قط برجل آخر غيره؟
- لم أحلم يا مولاي!
- ابحثوا عن الفيال! أمر الملك.
- هل من جديد؟ سأل المجلس المحموم كله بصوت واحد.
- لم يتغير شيء، قال الفيال منهكا. الذيل عالق حتى الآن.
في هذا الحين، ومن وراء خمارها، تكلمت راجنا الحلوة:
«تذكرت الآن، قالت بصوت مختنق، إنني حين مررت مصادفة في ساحة القصر رأيت مرة هذا الفتى مع فِيَلته، وكان بارعا حتى أن...، أنهت وهي تنتحب، حتى أن قلبي خفق له هنيهة».
عندئذ، ملأ الضجيج قاعة المجلس الكبيرة:
«مرحى! خرج الذيل أخيرا، وجاء الفيل الملكي الصغير!».
على قماش الآتما[٩]، حيث نطرز يوما بعد يوم نسيج حياتنا، يتجلى بريقها في أدنى بقعة وفي كل شيء.

الطيف المربِك

فقد زوج شاب شريكة حياته في زهرة عمرها. كانت جميلة، ولكن شكسة قليلا وغيورة بشكل مخيف. بعد حداد يستحق التقدير استمر ستة أشهر، شعر الشاب، مع إطلالة الربيع، بمشاعر جديدة تتولد فيه.

بحث عن زوجة، وخطب الحلوة يويوهي، التي يصدح اسمها مثل زقزقة القرقف، كهفهفة الحرير. باختصار، كان الشاب الأرمل عاشقا، وأسعد مما كان مع زوجته السابقة في أي يوم. حينذاك، ظهر طيف تلك الزوجة لأول مرة. ذات ليلة، بينما كان نائما بارتياح على حصيرته، أحس بتيار هواء بارد يدغدغ أخمص قدميه، فاستيقظ. كانت كيريوكا أمامه. الحسناء، وعلى رغم ما فيها من اضمحلال، بدت غاضبة، ولم تفقد شيئا من طبعها الغيور:

قالت: «كيف تجرؤ على خيانتي مع صغيرة بلهاء، لا حسن فيها، أضافت بلهجة لا تنم عن وفاء، ولها منذ ولادتها وندبة شديدة القبح على الجهة اليسرى من صدرها؟

- كيف عرفت ذلك؟، سأل الزوج المسكين مندهشا.

- «في مملكة الأموات، يمكننا الوصول إلى الأسرار، ونعرف كل الأشياء التي تخفى على عيون الأحياء».

وتلاشت الحسناء. لم ينم الزوج المرتعد خوفا تلك الليلة.

منذ ذلك الحين، أصبحت حياة هيوشي جحيما. كان في النهار يتنزه مع يويوهي الناعمة، في بساتين أبيه. كانا يتأخران في

الجلوس قرب بركة ماء كبيرة، مستمتعين بروعة أزهار اللوتس النامية. لم يعرف هيوشي الضجر برفقة خطيبته، كان يسامرها بحنان، ويحادثها ببسمات خجولة، متأملا خلف عنقها المكتمل، وشعرها الحالك السواد، وخديها الناعمين كمخمل زهر الخوخ. في الليل، كان يتسلل إليه طيف كيريوكا فيقض مضجعه. بعد أن تجلس زوجته المتوفاة على طرف الحصيرة، تروح تسخر من كل أفعال وحركات نهاره، وتقلد باستهزاء رقة كلماتهما. كانت تذكره بغرامياته القديمة، وتردد على مسمعه:

«أعرف كل شيء عنك، ومعرفتي هذه تقيدك. حياتك لي وحدي، لي أنا!».أفضى المسكين - وقد أُنهكت قواه وكاد يجن - بسره إلى صديق، فنصحه بأن يستشير معلم زن شهيرا يعيش متنسكا في معبد كنينغي القديم. كانت رحلته إليه طويلة وصعبة. ولما أصبح في المعبد، حكى للمعلم محنته.

- «استحالت زوجتك شبحا، وتعرف كل شيء عنك».

- نعم أيها المعلم، أنت تعلم أنه يمكنها، وقد نزلت في ديار الأموات، الوصول إلى تلك الأسرار التي يتعذر علينا نوالها، تعرف الماضي، والمستقبل، وتدقق متى تشاء في أدنى أفكاري.

- أرى ذلك، قال المعلم وهو يحك إصبع قدمه بقضيب خيزران صغير، فالسماء كانت قد أمطرت، ولطخ بعض الوحل قدميه العاريتين في الصندل.

- ماذا يجب أن أفعل أيها المعلم؟

- «لا تزال شابا، يا هيوشي، قلبك بكر ورقيق. من اليسير أن يبسط سيطرته عليك. سأساعدك».

انهال الأرمل الشاب عليه بالشكر، وقال:

«سأتبع نصائحك أيها المعلم، سأمتثل لها بكل دقة، دلني فقط على الطريق».

- عندما يظهر طيف زوجتك، جاهر بجهلك بتذلل، امتدح معارفها المدهشة، باختصار تملقها، واعرض عليها صفقة: «إن استطعتِ الإجابة عن سؤال أخير، أقتنع نهائيا بقدراتك فوق الطبيعية، وأتخلى عن يويوهي، التي ليست سوى مخلوقة عادية، وسأكون زوجك المخلص إلى الأبد».

- للأسف! صرخ هيوشي، هي التي ستتغلب علي، أنا متأكد! ما لا تعرفه، تحزره، لا يخفى عليها شيء مما أفعل وأفكر...

- اتبع نصيحتي، قال المعلم بخشونة، أو انصرف إن لم تشأ الإصغاء لما أقول.

هيوشي، المضطرب والمرعوب، قبل:

سأطيع أيها المعلم.

- تناول بيدك اليمنى حفنة كبيرة من حبوب الصويا، واسألها كم هو عدد الحبات.

- أهذا كل شيء؟ سأل هيوشي.

لم يجب معلم الزن. اتخذ وضعة اللوتس (١٠) والتأمل.

عاد هيوشي إلى البيت. في الليلة نفسها، ظهر طيف زوجته من جديد:

«ذهبتَ لزيارة معلم الزن، قالت ساخرة، أتحسب أني أجهل ذلك، وأنك تستطيع الإفلات مني؟».

أدخل هيوشي يده في كومة صويا، وانتزع منها حفنة كبيرة

بيده اليمنى ومدها مغلقة:

«كم حبة في قبضتي؟»، سأل.

تبدد طيف كيريوكا في الهواء، ولم يظهر بعد ذلك قط.

يكفي شيء زهيد، قدر ضئيل من التفكير السليم، سؤال واضح، ضحكة لإرباك المعلمين الروحيين المزيفين، الذين يتدبرون أمر النفوس البسيطة، والأرواح الحساسة أو التي ضعفت، بإحاطة أنفسهم بالغموض والأسرار. بضع حبات من الصويا، وتتهاوى الأشباح.

براعم الخيزران

الخيزران نبتة استوائية مدهشة. ساقها خفيفة، ومتينة، ومرنة، وجديرة بكل الاستعمالات: عصا طويلة للبهلوانيين، وخيزرانة لمعلمي الزن ينبهون بها التلاميذ الغافين أو الساهين. الخيزران ينثني مطواعا على شكل سلة، وحصيرة، ووعاء، بل وحتى طبل. من بعض القطع، يصنع أثاث، وبأخرى، في اليابان، وفي الصين، يبنون قرى كاملة. هناك نوع فريد، بكوري ومليء، يسمونه «خيزران موزو». ويعود في اسمه لشخص اسمه موزو، عاش في الصين، دائرة كيانغ - هيا، في إمبراطورية «وو» القديمة [11]، القرن الميلادي الثالث. هاهي حكاية موزو، مثلما وصلتنا من القرون الماضية.

عاش موزو، اليتيم الأب، وحيدا مع أمه التي أحبها حبا جما. كان موظفا في الأشغال العامة، كاتبا مثاليا رائع الخط، وكان الجميع يقدرونه لتواضعه ونخوته. كان في أوقات فراغه يتردد إلى الريف لجمع نوع خاص من الخيزران، الذي تشكل براعمه الكبيرة والغضة أكلة فاخرة. وكانت أمه مولعة بها.

حدث مرة أن أمه لم تستطع تناول أي وجبة، ولو لمرة واحدة؛ لأن الطبق الأول لم يكن براعم الخيزران الطرية. ظل موزو يرتاد الحقول، والغابات، صيفا وشتاء، ليحضر لأمه تلك البراعم التي تفضلها.

«آه يا ولديَ، قالت، إن فاتتني أكل هذه البراعم، أنا التي لم أعد أستسيغ طعم شيء منذ وفاة والدك، أظن أني سأسلم الروح!».

وبقي موزو يبحث في الريف، ويستكشف الحقول والمروج وأطراف الغابات، ويجلب لأمه كل يوم براعم الخيزران التي تحبها. ولكن، تلك السنة، في مملكة وو، كان الشتاء شديد القسوة بشكل غير معهود. هطل الثلج بغزارة. وتجمدت الأرض. وتردد موزو، أكثر من أي وقت مضى، إلى الحقول والغابات، ونبش براعم الخيزران من أماكن ما كان يتسنى لأحد غيره أن يجدها. كان يقطفها من تحت ركَم الثلج التي كونتها الرياح، ومن حفر الغابات، ومن كل مكان. ولكن، ذات مساء، عاد إلى البيت خاوي اليدين. أبت أمه أن تأكل. وفي الأيام التالية، ظل موزو يعود بخفي حنين يائسا:

«بذلت جهدي يا أمي، ذهبت شمالا وجنوبا، وشرقا وغربا، ولكن ما دام هذا الثلج مستمرا، لن أستطيع إحضار براعم الخيزران التي تحبينها. أرجوك، ارضي وكلي».

لكن أم موزو أبت أن تردّ. رفضت أن تتغذى، امتنعت عن الطعام والشراب، وراحت تذوي. كانت السماء زرقاء، باردة، قاسية لا تلين، وجمدت الثلوج كل الريف. عندئذ، ذات صباح، التفت نحو السماء يائسا، وناح:

«منذ سنوات، صباح مساء، من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، فتشت في كل مكان عن براعم الخيزران. لم يفت يوم إلا وجلبت لها منها كي لا تموت، واليوم لا أستطيع أن أجد برعما واحدا».

كان يلوي يديه، مرهقا، وعيناه صوب الحديقة أمام المنزل، حيث يمتد الثلج قارس البرد، غير مبال بحزنه.

في تلك اللحظة، بينما كان راكعا، متضرعا إلى السماء، لمح

على البساط الأبيض ثلاثة براعم بنفسجية تخترق هامة الثلج. ثلاثة براعم خيزران! قطفها، وأحضرها إلى أمه. أكلت وشربت، ونجت. منذ ذلك الحين، يسمون هذا الخيزران في اليابان، كما في الصين، «خيزران موزو». إنه رمز البر بالوالدين.



يستوي بوذا في برعم خيزران كما في وسع السماء:
نداوتُها
لا يمكن أن تُنسى،
خيزراناتُ هذه السنة (١٢).

(ريوكان)

كوبوكي والتنين

تروي جميع البلدان، كل الحضارات، كل بطريقتها، حكاية البطل والتنين نفسها. معركة أسطورية بين الخير والشر، والشباب، والشجاعة التي تصرع الوحش الكريه، والعدل الذي يهزم الحيوان الخرافي.



ذات مرة، عاش شاب فقير، حسن القوام قوي البنية، عرف ببسالته. في ذلك الوقت، كان في الجبل نوع من الغول، وحش، يعترض طريق المسافرين المروَّعين. كان الفلاحون يتحدثون في السهرة عن إساءاته الفظيعة. لم يعرف أي شخص شكله، إذ لم يعد أحد حيا من الجبل. قال كوبوكي إنه سيذهب لمواجهة الوحش. حاولوا منعه، وبكت الفتاة التي تحبه، وارتمت على صدره، ولكن، لم يزعزع شيء تصميمه أو يهبط من عزيمته. زوده الفلاحون اليقظون بالسلاح: عصا ومذراة. وقدم له زعيم المنطقة رمحا وسيفا، وأعطاه جنديٌّ حربة ثقيلة. وانطلق كوبوكي مع أسلحته وحيدا إلى الجبل. مشى ثلاثة أيام. أخيرا، صباح اليوم الرابع، تقدم بمفرده من مغارة الوحش، الذي سرعان ما خرج، هادرا مزمجرا، وهو يقذف اللهب من فمه. كان شكله مرعبا، غير أن كوبوكي، صمد في مكانه بإقدام، ولم يتراجع أبدا.

بقيا هكذا لحظات، يحدق كل منهما في وجه الآخر. بدا الزمن كأنه قد توقف، بانتظار الكارثة. أخيرا، زعق الوحش:

«لماذا لا تهرب كالآخرين؟».

- لا أخاف منك! قال كوبوكي.

- سألتهمك! زمجر الوحش.

- إن أردت، انظر، ها أنا أضع أسلحتي على الأرض، العصا، والمذراة، والرمح، والسيف وحربة الجندي. أعرف أنك لن تلمسني.

- ومع ذلك، لماذا لا أخيفك؟ سأل الوحش مندهشا.

- أنا الـ «أتما»، أنا الحقيقة الكلية، أنا هي. إن التهمتني، فلأنك مجنون، فأنت تلتهم بذلك نفسك. نحن واحد. ولكن، أرجوك، إذا رغبت في أن تفعل، ها أنا تحت تصرفك».

صاح الوحش مذهولا:

«لا أفهم شيئا مما تقول، غير أن كل شيء يصبح معك معقدا كثيرا. يفر الآخرون صارخين خوفا، أطاردهم، وأقتلهم، وأفترسهم. أنت طبيعي. هنا لا أعود أعلم ماذا يجب أن أفعل. في النهاية، أفضل الإحجام عن أكلك، أعتقد أن معدتي لا تهضم كائنا غريبا مثلك. أرجوك، خذ أسلحتك وابتعد!».

انسحب الوحش إلى مغارته، مغموما وقد أصابه الغثيان.

أوشوكون الجميلة جدا
حكاية من أصل صيني

يوان هان [١٣]، أحد آخر أباطرة سلالة هان النبيلة، كان عنده كثير من الزوجات، حتى أنه لا يعرف عددهن بالضبط. كانت التقاليد تقضي بأن يقدم له كبار أعيان البلاط كل عام أجمل بناتهم. وفي كل سنة تزداد النساء في الحريم، وينمو معهن البوح والنجاوى في ظلال الشجر، وهفهفات الحرير ودمدمات نوافير الماء. ولكن، في ذلك الوقت، حضر إلى البلاط وفد من بلاد الهياطلة. كان قد طال أمد الحرب بين هذه المقاطعة البربرية والإمبراطورية. كان يوان، الأمير الشاب، راغبا في السلام. استقبل البرابرةَ بكياسة وكثير من الاحترام. وقرر أخيرا أن يقدم لهم هدية ترضيهم وتفرحهم.

ولكن ما هي؟ هؤلاء الناس الغلاظ لا يحبون الخزف الفخم، ولا علب الحلي المجمَّلة، ولا اليشم، ولا أقمشة الحرير الأنيقة الألوان.

«مولاي! قال كبير الوزراء، هل تسمحون لي بإبداء الرأي؟».

وافق الإمبراطور.

«لنقدم إلى ملك البرابرة إحدى نسائك...».

- أوه! صرخ رجال البلاط ساخطين.

- مولاي، إنها الهدية الوحيدة التي ترسخ السلام نهائيا بين بلدينا!

- ليكن! قال الإمبراطور.

- ستتكرمون جلالتكم حتما باختيار إحدى أقل نسائكم محاسن، وهذا مع ذلك شرف كبير لهؤلاء البرابرة!

- ليكن الأمر كذلك، قال الإمبراطور. آمر فناني البلاط برسم صور كل زوجاتي، وسأختار تلك التي عليها أن ترحل إلى البلاد البعيدة.

انتشر الخبر بين الحريم انتشار النار في الهشيم. وجاء رسامو البلاط لتصوير كل النساء. سترحل أقلهن جمالا، وأدناهن مبتغى إلى البلاد البعيدة. لم تكن أي منهن راغبة في الذهاب إلى بلاد البرابرة، وأن تكون ألهية بين يدي ملك بربري. أخذن جميعا يكسبن ود رسامي البلاط، وسعين للظهور بأجمل ما يمكن: جملن وجوههن قدر ما استطعن، لم يوفرن المراهم، ولا الحمرة، وملّسن شعورهن، وتزين بالحلي. تنافسن أمام رسامي البلاط في التملق والإطراء، والابتسام، والملاطفة، وأظهرن جميعا خدودهن وجباههن المزدانة بالتبر. كلهن، إلا واحدة. كانت أوشوكون جميلة، ذات حسن باد ووضاء، حتى بانت الأخريات بوجودها ذابلات، كضوء المصباح في نور الصباح. مثلت أمام الرسامين، حين جاء دورها، من دون استعداد، ولا حلي، بوجه عادي، ولم تحاول استمالتهم. أغاظتهم لا مبالاتها، فأضافوا إلى صورتها ملامح خشنة شوهت بخبث ذاك الوجه المشرق.

تلقى الإمبراطور جميع الصور. كلها متشابهة، باستثناء واحدة، طبيعية لا إضافات فيها. سمى أوشوكون، وأطلع المبعوثين الأجانب على خياره. وأمر بأن تبلغ «هديته» كي تستعد للسفر إلى بلد البرابرة. ولكن، في المساء، قبل أن ينام، عاد لينظر في هذا الوجه

الغـريب، وانـتـابـه شـيء من الـتـردد. وعـزم عـلـى ألا يفكر فـيـه مـرة أخـرى. «يجب أن أقـدم هدية لملك البـرابرة، قـال لنفسـه، وبما أنه علي الـتـضـحـيـة بإحـدى زوجـاتـي، فـالأحـرى بـي أن أخـتـار أقلهن تجـمـلا وأدناهن اهـتـمـامـا بنعـمـيات الـبـلاط». مع ذلك، في الـيـوم الـتـالـي، عند منتصف الصباح، أمر رئيس الحـجـاب فجأة بإحضـار أوشـوكـون، التي لم يرهـا من قبل قط، وقـد أراد أن يتـعـرف إلـيـهـا قبل أن يقدمها إلـى مـبـعـوثـي الهيـاطلة. دخلت أشـوكون إلـى قـاعـة العـرش، فـإذا به كـأنه أمـام نسـمـة ربيـعـية، فـي حضـرة شـجـرة كـرز مـزهـرة. وقفت أوشـوكون بقامة منتصبة، أنوفة رائعة الجمال، ذات حسن لا يضـاهـى، أخـذت بمجـامع قلبـه. ظلت عيناها مـخـفـضـتين، ولم تـتكلم، فــأحــبــهــا. ولما تجــرأت أوشــوكــون على الـنـظـر إلـى الإمـبـراطـور الـشـاب، مـتـجـمـدا على عـرشـه، أصـاب قلبـهـا الـوهـن، وهـي البتول النفور، ووقعت في الحب.

كـان الإمـبــراطـور قـد قـطـع عـهـدا، وأعلن خـيـاره أمـام أعـيـان البـلاط، وكـان الموفـدون الأجـانب عـلـى أهـبـة العـودة إلـى بلادهم. تحـدد المصـيـر. هكذا، في غم عـاشـت أشـوكـون الجـمـيلة بقـيـة النهار.. وأيضـا إمبراطورها المحبوب. هكذا رويت أشياء الماضي.



أصل مـذهـب الزن من الهند، حيث كـان اسـمـه «دهـيـانـا». دخل إلـى الصـين فـي القـرن الـسـادس. في ٢١ سـبـتـمـبـر ٥٢٧، نزل في كـانتـون راهـب هندي ملتح، عيناه زرقـاوان، فـأثـار فـضـول الصـينيين جدا. كـان الإمـبـراطـور ليانغ وو - تـي رجـلا مـتـقـشـفـا ونزيهـا، وبوذيا مـخلصـا. حوالـى نـهـاية حيـاته، كـان يفكر في أن يصـير راهـبـا. دعـا

إلى بلاطه في نانكين هذا الوافد الجديد الغريب شكله، الذي كان يقول إن اسمه بوديدارما، واستقبله بكثير من الحفاوة. إلا أن مذهب الراهب، البسيط والطبيعي، حيره.

وروي هذا الحوار بين الإمبراطور وبوديدارما:

«بنيت منذ بداية حكمي الكثير من المعابد، ونسخت العديد من النصوص المقدسة، وساعدت الرهبان، فبرأيك بماذا أنا ذو فضل؟».

- لا فضل لك البتة، أجاب بوديدارما.

- ولماذا؟

- العمل الذي يستحق التقدير حقا مفعم بالحكمة الصافية».

وغادر بوديدارما القصر سريعا، متوجها نحو الشمال. ولم يستبقه الإمبراطور.

انتهى المطاف ببوديدارما بالإقامة في بلاد وي، في دير شاو - لين الشهير. وتؤكد الأسطورة أنه مات عن عمر مائة وخمسين سنة، وأنه دفن في جبل هونان. ويحكى أنه لما فتح قبره بعد قرن من ذلك الحين، وجدوه فارغا. لم يكن قد بقي منه سوى صندل.

تعاليم بوديدارما، التي كانت تبسط البوذية وتنقيها، أخذت اسم «تشان» في الصين. وقد لخصها تلميذُ تان - لين هكذا [١٤]:

الحكماء لا يدخرون جسدهم، ولا ثرواتهم، ولا يملون أبدا من السخاء. إنهم أحرار، بلا تعلق.

لا تخدعهم المظاهر، وهم، إذ يمارسون الفضائل الست [١٥] لا ينتفعون من أي منها. وهكذا، من دون تفكير في ذلك، ومن دون أن

ينسبوا أي فضل إلى أنفسهم، يعيشون في محبة كل مخلوق، مطمئنين، متحدين بتناغم مع دارما (الأصول والفضيلة والخير).

في القرن الثاني عشر، اكتشف راهب بوذي ياباني اسمه إيساي عقيدة تشان خلال رحلة له للدراسة في الصين، ولما تحمس لها، نقلها إلى اليابان، حيث انزرعت وازدهرت باسم زن. واليوم، تنتشر عقيدة الزن في الغرب. وهكذا، وقد اجتازت القرون، وعبرت الحضارات متكاملة مع ممارسات أخرى، وعادات أخرى، الزن هي تلك الموجة العارية، ذاك النداء إلى الجوهر، ذلك الناقوس الداعي إلى المطلق. ويمضي المذهب، حرا، فرحا، ملغزا، وأخاذا. إنه دائما ذلك «الدرب السالك»، الذي يرمز إليه الصندل الذي عثروا عليه في قبر بوديدارما الفارغ.

«بدت لي هذه اللمحة التاريخية الموجزة ضرورية لهذا الحين من الكتاب، لأن...

- عزيزي المؤلف، دعني أقاطعك! بدت لي بالأحرى في غير محلها! ما زلنا تحت وقع سحر الجميلة والتعيسة أوشوكون، متأثرين بتلك الحكاية الغرامية.

- مع ذلك، علي تذكيرك بأنها حكاية زن!

- هل يريد الزن أن يشير هنا إلى شيء ما؟

- تعرف جيدا أن حكاية الزن لا تنطوي على تفسيرات ولا على مغزى، تنتهي إلى مسامعنا هكذا، كما هي. علينا أن نتأمل، ونطيل النظر فيها.

- بالنسبة لي، سأطيل بأن أستسلم لانقباض لطيف، أحلم بهذين العاشقين اللذين فرقت بينهما إلى الأبد فكرة مشؤومة.

- اسمع! هذه ليست من حكايات شارل بيرو أو سهرة أكواخ القش! يجب الذهاب أبعد من ذلك.

نظر إلي محدثي، مرتبكا قليلا. ابتسمت، وابتسم أيضا.

اعذرني، قلت ضاحكا، لا شيء يبدو أصعب من محاولة إفهام روح الزن.

- أنا مصغ إليك.

- هكذا سأصيغ سؤالي إلى الحسناء أوشوكون: هل كان مؤذيا إلى هذا الحد، للشرف، للـ «طريق»، أن تقبل التزين كصاحباتها، أليس إيلاء أهمية مفرطة للمراهم، والمساحيق والزينة الرخيصة هو كازدرائها؟ لماذا لا يهتم المرء بجماله ببساطة؟ يحضرني هذا النص من الإنجيل:

«ما من أحد يوقد سراجا ويغطيه بوعاء، أو يضعه تحت سريره، بل يضعه في مكان مرتفع ليستنير به الداخلون» (لوقا ٨، ١٦).

الزن لا تقول شيئا آخر. الجمال، والذكاء، والمواهب، علينا أن نظهرها كي نقدمها ونتقاسمها بشكل أفضل. كوني جميلة يا أوشوكون، بكل ألق ربيعك. ففي تمام الحقيقة، كما هي، نستشعر ما لا نراه، الأتما. كان يلزم شيء قليل أيتها الحسناء أوشوكون كي يتغير مصيرك، ومصير محبوبك الإمبراطور. هكذا تسير حركة الكرما [١٦].

تمضي بنا الحكايات التالية خطوات أبعد على الدرب. كل حكاية تدفع باب الزن قليلا.

تموت... في أي عمر؟

للإنسان مصير الشرارة

لويس أراغون، إلسا

ريوكان، شاعر من القرن الثامن عشر، في البوذية هو ما كانه القديس فرنسوا الأسيزي[١٧] في قرون الغرب الوسطى. كان يعرف التكلم إلى النباتات، والحشرات، والطيور، واشتهر في كل اليابان بحكمته ونجوع احتفالات استجابات الأماني[١٨] التي يقيمها. كانوا يفدون إليه من أرجاء البلاد طالبين منه النصح والتوسط عند الآلهة.

وذات صباح، حضر أمام كوخ أغصان الشجر راهب معتبَر، نحيف، أنحل العمر عوده.

«تشرفني زيارتك أيها الراهب الصالح، قال ريوكان. بلغني ما عرفتَ به من طيبة. ما رغبتك؟.

- أريد احتفال استجابة أماني، قال الرجل وهو يداعب لحيته القصيرة البيضاء.

- بكل سرور، قال ريوكان، وماذا تتمنى؟

- أرغب في أن تكون حياتي طويلة.

- كم عمرك؟

- ثمانون عاما منذ أن أزهرت أشجار الكرز آخر مرة.

- وإلى أي عمر أسأل الآلهة أن تطول حياتك؟

- مائة عام!. مائة عام تبدو لي رقما مناسبا، نعم، مائة عام، هذا حسن.

- يدهشني تواضع طلبك، قال ريوكان، جئت من مكان بعيد جدا لتطلب مني استجابة هذه الأمنية، ولمَ تكتفي بمائة عام؟

تنهد الزائر وقال:

- صحيح أني أنشر الحكمة دائما حولي وأوزع العمل الصالح، وقد لا أستطيع القيام بذلك إن عشت عمرا أطول! لنقل مائة وعشرين، مائة وثلاثين، لنحدد رقما بلا كسور: مائة وخمسين عاما. هل هذا ممكن؟

- ربما، أجاب ريوكان، نقول إذن مائة وخمسين عاما. وهذا ما ترغب فيه، وأنت رجل حكيم ولست متطلبا كثيرا.

- انتظر لحظة، قال الثمانوني. صحيح أنها سبعون عاما، وهذا قليل جدا، فسنواتي الثمانون الأولى انقضت كأنها حلم، يبدو لي أن ذلك كان البارحة يوم كنت ألعب مع إخوتي وأخواتي في حديقة أهلي.

- الشطر الثاني من الحياة، ذكر ريوكان، هو كالسفح الآخر من التل، ننحدر منه بأسرع من صعودنا السفح الأول.

- ليكن، أنا أذعن لصواب ما تقول، أيها الحكيم ريوكان، اجعل لي احتفال استجابة أماني لعمر... لنقل ثلاثمائة عام!

حك ريوكان رأسه ولم يحرك ساكنا.

«حسنا، ماذا تنتظر، قال الزائر وقد نفد صبره، هل بالغتُ في الطلب؟ أضاف قلقا.

- لا، لا، أنا أفكر، قال ريوكان. في الحقيقة لماذا توقفت عند ثلاثمائة عام، يروى أن بعض السلاحف يعيش ألف عام، كما أن طيور الكركي...لماذا ثلاثمائة عام فقط؟

- ألف عام؟. في نهاية الأمر هذه الفكرة لا تخلو من محاسن.

لدي كثير من الأعمال الصالحة علي أن أنجزها، ويمكنني فعل المزيد المزيد من الخير في ألف عام!».

بقي ريوكان ساكنا، وبدا حائرا:

«أنا أزن كلامك، أيها الراهب الصالح، وأقدّر كم هي حياتك ثمينة، قد يكون الحل الأفضل هو ألا تموت أبدا».

– أيمكنك أن تخصني باحتفال يعفيني من الموت؟

– نعم، لكن ذلك قد يكون غاليا، غاليا جدا، وصعبا جدا!

– أنا مستعد لأن أدفع الثمن اللازم، والقيام بأقسى التمارين. أفحمتني أيها النبيل ريوكان، أرجوك، سألبي كل ما تطلبه مني، ولكن امنحني هذا الاحتفال الذي سيجعلني خالدا.

منذ ذلك اليوم، اتخذ ريوكان الراهب العجوز القادم من الشمال رفيقا له في كوخ أغصان الشجر البسيط. كانا يقطعان الحطب معا، ويذهبان إلى إحضار الماء من النهر، وينامان على التربة المدكوكة، ويصليان، ويتأملان ساعات طويلة. ويأكلان زبديات أرزّهما، ويضحكان كلما نظرا إلى طائر أبو زريق الأخرق محلقا. وفي الربيع، نظم ريوكان قصائد:

هذا العالم
ليس سوى
أزهار شجرة كرز

وأيضا:

عندليبٌ
الحلمِ أيقظَني،
رزٌّ صباحيَ

أو أيضا:

مركب الرز

يمضي

نحو قمر اليوم الثالث[١٩]

هكذا مضى أحد الشتاءات، ثم ربيع، فصيف. كانا يجلسان كلاهما أمام الكوخ ذات مساء من أواخر الصيف. ويتأملان أول تحليق للإوز البري، عندما قال ريوكان:

«غدا سأقيم احتفال استجابة الأماني الذي سيجعلك خالدا، مثلما اتفقنا.

قال الثمانوني مداعبا لحيته التي نمت كثيرا:

- لم أعد أفهم لماذا طلبت منك احتفال استجابة الأماني هذا».



المنتهي هو اللامنتهي، واللامنتهي هو المنتهي. الحاضر هو الأزل.

الرحلة

حكاية من أصل تيبتي

راهبان، كانا في سفر. منذ ثلاثة أيام لم يصادفا سوى امرأة عجوز على عتبة كوخها. قدمت لهما قليلا من الشعير المحمص، والشاي والزبدة الزنخة. أبقاهما هذا التساميا [٢٠] الهزيل، المحضر في العشية الفائتة، على معدة خاوية. مكثا جائعين، باردين. ثم مضيا. فجأة، راح المطر يتساقط. تدثر أصغر الراهبين سنا بذيل ثوبه قدر ما استطاع. وتابع الآخر، الأكبر سنا، السير بصمت. هبط الظلام، وليس في الأفق أي مأوى، ولا معبد، ولا صومعة، ولا حتى أبسط كوخ. كان الدرب الذي يسلكانه يتيه بعيدا في الجبال. لم يعد الشاب المبتدئ يتحمل. ثم إنه لا يعرف هدف هذه الرحلة التي لا تنتهي. «لا بد أن معبد الزن غير بعيد، قال لنفسه، يبدو لي أننا نقترب من كاماكورا، ولكن هل هي حقا وجهتنا؟». حطم تعليمات الصمت الصارمة، وجرؤ على أن يسأل سيده الذي كان يمشي بمحاذاته:

«أيها المعلم، أين نحن ذاهبون؟».

- نحن هناك، أجاب المعلم.

- أتريد أن تقول إن المكان بات قريبا؟ ألح الراهب الشاب.

- هنا، الآن. نحن في المكان».

نظر المبتدئ المشدوه إلى الدرب المتناثر الحصى، الموشح بالضباب. في البعيد، كانت قمم الجبال الرهيبة قد أخذت تتلاشى في ظلام الليل. كان خائفا، يرتجف بردا، وجائعا. وفجأة،

كلمح البصر، فهم. وتذكر الكلمات التي غالبا ما يرددونها في الدير: «الزن درب موصل...». الأبدية مسوَّرة في كل خطوة عليه. في الحاضر، تقوم الحياة، والواحة، واللامتناهي. أتلذذ بالحاضر، الماضي انزوى، والمستقبل حلمٌ، الحاضر وحده موجود. «عندما تستيقظ على الحقيقة، تقول قصيدةٌ قديمة، يصبح ذهنك لامعا وضاء، كشعاع القمر».

كان المبتدئ يمضي بسلام وهو يتمتم لنفسه بهذه الأشياء.



أحب هذه الحكاية حبا طاهرا رقيقا خاصا. يختار كل واحد خرزته من العقد. العيش في الحاضر هو أحد أسرار الزن. مقاربة أخرى معروفة جيدا، هي تشانويو(٢١)، حفل الشاي الطقوسي. ومقوماته هي:

- مكان متواضع وهادئ.
- لقاء اللحظة.
- مخالطة الأصدقاء الممتعة والهادئة.
- العناية والمحبة التي تولى لتحضير «الإكسير الذهبي»: الشاي.
- التحادث حول أشياء بسيطة وجميلة.
- صمت.

تخيلوا دربا جبليا معزولا أو غابة تفضي إلى مسكنٍ حكيمٍ. هاهو جناح الشاي. بنيته بسيطة، مبني من الخشبِ أو من الخيزران. ليس بناء لمقاومة الزمن، لتحدّيه بأزليةٍ حجرية زهيدة، بل من أجل «الانسجام» معه. الحُجرة التي يدخلون إليها مساحتها

عادية: تسعة أمتار مربعة تقريبا (حصيرتان ونصف)، وثلاثة أو أربعة أصدقاء يجلسون فيها بارتياح. فيها رسوم زن، وباقة من أزهار الحقول الممتعة؛ وموقد لفحم الخشب، ومغلاة حديدية مستديرة يعلوها الزنجار، ووعاء ماء، وملعقة الخيزران، وبياضات ناصعة، وعلب الشاي والطاسات التقليدية العادية. يؤدي أستاذ الشاي حركاته الطقسية بفعالية، وبطء، وعناية وحب. يبدأ الحديث وينتظم هادئا؛ يتحدثون عن الشعر، والتاريخ، أو العمارة. وبهدوء، ينطفئ ضجيج الأصوات الخفيف، فيتأملون بصمت الطاسات المألوفة، وزهرة حقلية، ويستمعون من بعيد إلى تغريد طير. الزمن يتوقف، تناغم وصفاء.

عبر القرون، تتعقد الطقوس، وتظهر قواعد لترتيب الزهور، وطريقة صب الشاي...لكن ريكيو، أشهر أساتذة الشاي، يتذكر:

ليس الشاي شيئا غير هذا:

تغلي الماء
تنقع الشاي
وتشربه...
هذا كل ما يجب أن تعرفه.

الصمت

الصمت، كلمة متعددة المعاني، كلمة بأقنعة كثيرة قشرها رقيق، نستمتع بإزالته. الصمت تغيُّبٌ للصوت، وكف عن الكلام، وتنسُّك. يتجلى الصمت غناء خفيا للكلام وقد أوصل ما رمى إليه، وموسيقى بألف نغمة متوافقة تبعا للمتخيل، والوجداني، والحدس. يكشف الصمت، ما وراء المعنى الكلي، العقلَ، يأخذنا إلى قلب الأشياء، يقربنا، وحسبنا في ذلك أن تستجيب لك الآلهة. وعند أتباع الزن خصوصا، الصمت وسيلة ممتازة لبلوغ الحقيقة، الينبوع الخفي.



اليابان. النصف الأول من القرن الرابع عشر، تحت حكم شوغونات أشيكاغاكا. معبد متوار في قلب الجبال. قرر أربعة رهبان زن الاعتزال في صمت مطلق. أقاموا متخذين وِضعة اللوتس. وحل الليل. البرد قارس.

«انطفأت الشمعة! قال الراهب الأصغر سنا».

- يجب ألا تتكلم! نحن، في جلسة صمت تام، نوه راهب أكبر سنا بقسوة.

- لماذا تتكلم، بدل أن تصمت، مثلما اتفقنا! لاحظ الراهب الثالث بنزق.

- «أنا وحدي لم أتكلم!»، قال الراهب الرابع برضى. تبعث هذه الطرفة على الابتسام. إلا أنها تعبر بدقة عن روح الزن. يتهكمون فيها من الرهبان، ويتعاملون مع الصمت بظُرف، مع علمهم بأنه

عنصر جوهري من الطريق. ذلك أن الصمت ليس شيئا آخر غير الصمت، يعني وسيلة. «إن صادفت البوذا، اقتل البوذا»، يقول مثل سائر شهير.



يجب ألا يعيق شيء التجربة الشخصية.

الراية والريح

يمضي الزن إلى الأمام باستقامة. لا يقدم تفسيرا، يوحي وحسب. نعرف الطرفة الشهيرة لذلك التلميذ عندما سأل معلمه:

«ما هي طبيعة بوذا الحقيقية؟

- السروة في حَوْش الدار».

يجمع الزن بين المرئي والخفي، وأشياء الحياة اليومية العادية والحقيقة النهائية، النسبي والمطلق. «السروة في الحوش»، والزهرة أمامنا، والحصاة تحت خطوات أقدامنا هي الدروب المؤدية إلى الما وراء، ومن الما وراء، ومن الطرف الآخر.



ذات يوم ربيعي جميل بعد الظهر، عاد معلم الزن من نزهته. كان الطقس رائعا، لا حارا ولا باردا، طقسا متوازنا ولطيفا تألفه الروح بعفوية. كان هواء ناعم يهب. ولما وصل إلى بوابة الدير، لاحظ أن الراية وعليها صورة بوذا تخفق في الهواء برفق. وكان راهبان مبتدئان منزرعين أمامها.

«الراية هي التي تتحرك!

- لا، الهواء هو ما يتحرك!

- حسب العقيدة الصحيحة، ما يهم هو ما نراه أمامنا الآن. وهذا الذي نراه هو الراية، وهي التي تتحرك!

- أبدا، نظرك خاطئ، لأن تحرك الراية ليس سوى نتيجة للهواء، فهو السبب للأول، والحقيقة هي ما وراء الظاهر.

- لكن وجود الهواء هو افتراض!

- لا تتحرك الراية بلا باعث، وحقيقةُ ذلك الواقعيةُ مُنَشِئةٌ للهواء!

- محض نَظَر!

- بداهة!

- لا، البتة!

- نعم!».

احتد الراهبان، ولم يكن ذاك سوى تحادث ودي أضحى جدالا، معركة. وأوشكا أن يتحولا إلى العراك بالأيدي. حينذاك لاحظا وجود معلم المعبد، الذي كان ينظر إليهما بهدوء. ارتبكا قليلا، والتفتا نحوه:

«أيها المعلم، هي الراية التي تتحرك، أم الهواء؟

- لا الراية، ولا الهواء، ذهنكما هو الذي يتحرك».



«الزن سر. ما إن يلامسه الفكر، حتى يتوارى(٢٢)».

الحب يمضي

البـرعم الذي يبـزغ، يزهـر، فيـتفـتح، ويذبل ويصبح عَفَـرا. كل شـيء يطلع، ينـدرس. كل مـــا يـولد، يموت، كل مـــا يأتـي، يمضـي فيتجلى بذلك اللا متناهي، الـ أتما الأبدية، وحدها تبقى.

كان شـاب فقير اسـمه إروكا يحب بكل جنون قلبه فتـاة غنيـة، وجميلة أيضـا. ولما كان متعلما، فقد راح يكتب كل يوم رسـالة حب إلى مـحـبـوبتـه، خـلال ثلاث سنوات طويلة، دون أن يتـخلف مـرة واحدة. في السنة الثالثة، جرؤ على أن يوحي إليها بأن تومىء إليه لمناسبـة عيـد الأمـوات (٢٣)، لكن المحبوبة لم تستـجب، بل لم تنظر إليه، ولم تبد أدنى اهتمام به. فتعب قلب إروكا. فكر في أن يصبح راهبا، وهذا ما فعله في الواقع. وسارت الأيام....

ذات صبـاح ربيعي، ذهب ليحضـر الماء من بئر تجاور صومعته، حيث صادف شـوغو، لأول مرة وآخـر مـرة في حيـاتـه. ارتمت عند قدميه:

- إروكا! صرخت، مشيت شهورا قبل أن أجدك، أخيرا أراك، يا إروكـا الـرائع!. هـز حـبك الذي تشـهـد عليـه ألف رسـالة قلبي في النهاية.

قـالت ذلك، وكشـفت عن وجهها الذي حجبته حتى ذلك الحين بوشـاح من الحـرير، فبان جمال أين منه ضوء النهار.

- أنا لك يا إروكا، أحبك اليوم، مثلما كنت تحبني بالأمس.

أجابها إروكا:

- فـات الأوان يا شـوغـو. قطعت كل صلة لي بهـذا النوع من

الحب. أنا راهب.

وتركها دون أن يعيرها نظرة واحدة.

ألقت شوغو نفسها يائسة في النهر، وغرقت.

ولما علم بالخبر، نظم إروكا هذه القصيدة:

لم تبق على الغصن،

زهرةُ الكرز

ماتت قبل الصيف

هذه الحكاية هي اليوم من الماضي. كل ما يولد يموت. كل ما يأتي يمضي، ولا يبقى إلا الأتما الخالدة.

راهبة فريدة جدا

كان معلم زن عجوز يحب هذه الحكاية.

«ستكون هذه الحكاية لحظة مهمة على درب حكمتك...»، كان يبتسم مازحا وهو يردد هذه الكلمات على مسامع الشبان المبتدئين.

لو أنك عـــرفت مـــدينة نارا [٢٤] في ذلك الوقت! نارا «المخضوضرة، الزهرة العطرية»، جوهرة جزيرة هونشو، العاصمة الدينية لليابان، روما البوذية. بين أسوارها، كان يعيش مئات الراهبـات والرهبـان. وفي كل أرجـائهـا، ازدهرت الأحـرام، والمصليات، والباغودات [٢٥] المؤلفة من عدة طبقات، والمعابد الشهيرة. أشهرها جميعا معبد توديجي. خلال الأعياد البوذية الكبرى، كان الإمبراطور نفسه يحضر الاحتفالات. في ذلك اليوم، كانت المدينة كلها مبتهجة. وقد انتشر حشد كبير من الناس في الأزقة حول المعبد، حيث أخذ المهرجون، وعارضو الدمى المتحركة، والممثلون الإيمائيون، والبهلوانيون يتنافسون بمهارة، ويسلون المتسكعين ببراعتهم وخفة حركاتهم. فجأة، سرت ضجة: «الإمبراطور، الإمبراطور!». كان الجنود المسلحون بالرماح الثقيلة يبعدون الناس، والموكب يتقدم: الإمبراطور على هودجه، مزدان بالذهب بأبهة، وحوله جمع من رجال البلاط، والوزراء، ورؤساء الحجاب، والرهبان. كان البخور ينشر أريجه في الجو، والأغاني تواكب بموسيقاها السماوية تقدم الموكب البطيء نحو رواق المعبد الكبير، الذي علته صورة بهية مطلية لبوذا ساطعة بألف ضوء.

«كانت أعيادا رائعة! قال معلم الزن الحالم.

- الحكاية، أيها المعلم، الحكاية!»، رجاه الشبان المبتدئون.

ابتسم المعلم: «المكان والزمان جزء من الحكاية، تنبهوا، لا تعط الحكمة نفسها لأولئك اللجوجين».

ولكن، في ذلك الحين، حدث أن راهبا وقع هائما في حب راهبة. كانت ريونين حسناء، جمالها مشرق، ساطع وغامض في آن. لون وجهها، وحسن رأسها، ومشيتها، وكل ما في جسمها البديع يبهر، غير أنها كانت إلى ذلك ثاقبة الذكاء، عزومة الطبع، سخية، تولي اهتماما وعناية للآخرين، الذين كانوا يشعلون النور في جوارحها. كانت ريونين تخلب ألباب أرجح الرجال عقلا، ربما بمن فيهم الرهبان...أحبها هاشينو بعنف وجنون. لم يكن يأكل، ولا ينام، ويبقى ساهيا طوال الاحتفالات الطقسية، مهووسا، لا يرى سواها، ولا يعيش إلا من أجلها، ساعيا إلى حتفه. ذات ليلة، عزم على أن يفعل شيئا، وارتكب الجريمة الكبرى بحق السماء، فدخل إلى صومعة الراهبة المحّصنة، وتوسل إليها أن تحبه.

حينذاك، جعلت ريونين مصير هاشينو بين يديها. كان يكفيها أن تصرخ، أن تنادي أخواتها، فيحصل ما لا يحمد عقباه. إلا أنها لم تتمنع قط، ولم تبد أي انذهال. قالت فقط للمبتدئ، المتحرق رغبة: «سأمنحك نفسي، غدا».

كان اليوم التالي عيدا كبيرا. لمناسبة استنارة البوذا، حضر الإمبراطور القداديس. وهنا، في حرم معبد توديجي، ظهرت أمام هاشينو غير محتشمة:

«قالت تزوجني الآن!»، عندئذ، عاش هاشينو الـ ساتوري، اليقظة. وكما في تلك الرسوم التي يتحول فيها الشكل والخلفية

إلى تجل مكاني، عـاش الواقع الحـقـيـقي، الذي ظل حـتـى ذلك الحين خفيا. عـرف أن حبـه كـان مـصطنعا، واهمـا، وأن رغبـاته المعربدة شبيهة بانعكاسات ضوء القمر المتغيرة على صفحة الماء. تمزق حـجـاب الـوهم. ولـج هـاشـينو جـذرَ الأنا، بلغ الحـقـيـقـة، واستعاد السلام.

هل تريد أن تكون إمبراطورا؟

في ذلك الزمان، كانت هيان كيو، ومعناها «عاصمة السلام والهدوء»[٢٦]، مكانا خلابا، يقيم فيه الإمبراطور. يتنافس السادة النبلاء، المرتدون ألبسة حمرا، قمصانا كرزية اللون، وسراويل أرجوانية، والسيدات النبيلات، اللابسات أردية مدوخة، بألوان لا تنفك تتجدد، في لُعب الحب وألعاب الخيال. كانت احتفالات الأعياد الباذخة تتوالى حسبما يشتهي القصر والدارات المزدانةُ بتماثيل رائعة. كان الموسيقيون يواكبون عشاق ضوء القمر إلى ضفاف بحيرة الفضائل الثمانية. كانت المعابد مشيدة من الخشب الثمين، المزين بعروق اللؤلؤ، والمرصع بالأحجار الكريمة، وكانت الاحتفالات الطقسية تفضي إلى أبهات لا نظير لها في الإمبراطورية كلها.

كان الإمبراطور ساجا رجلا مسنا، تعبا قليلا من هذه المسرات التي لا تنتهي. أضناه همٌّ غامض. لم يرزق أولادا. وغالبا ما ظل يتغيب عن البلاط، ويتوجه مع خدمه المخلصين والكتومين إلى أحد النساك، راهب زن يعيش غير بعيد عن العاصمة، في كوخ بسيط من أغصان الشجر، قرب باغودا مهدمة. كان ساجا، الجالس على جذع شجرة، يراقب الراهب في تعبده، وتأمله، وقطعه الخشب، ملاحقا بعينيه الفأس وهي ترتفع لامعة تحت أشعة الشمس ثم تهوي على الجذوع.

«أُنعم النظر في حياتك منذ سنوات كثيرة، أنت يا ريوبن نشيط، وحيوي، وسخي، وحكيم. أنا أشيخ وليس لي ولد. أتود أن

تخلفني، هل تريد أن تصبح إمبراطورا؟».

هذا السؤال المدهش، لم يرد عليه الراهب.

«تخيل يا ريوبن المتع، والثروة، والسلطة المطلقة، وحق الحياة والموت على كل ما يتنفس في هذه البلاد. يمكنك أن تبني هنا قصرا، أو معبدا مع ألف باغودا، وأن تبشر بالزن، وأن توسع نفوذه. أترغب في ذلك؟».

عندئذ، وضع ريوبن الفأس جانبا، ورتب ثيابه، وقال:

«أنا ذاهب إلى ضفاف النهر لأغسل أذنيّ اللتين لوثتهما كلماتك».

توجه صوب النهر، حيث صادف فلاحا غالبا ما كان يجيء إليه ليسقي بقرته.

«أتغسل أذنيك في هذه الساعة من النهار؟

- نعم، كلمات الإمبراطور لوثت أذني. عرض علي أن أخلفه في ارتقاء العرش.

- أفهم أنك تغتسل؟ قال الفلاح، وفي هذه الحال، لن أدع بقرتي تشرب من هذا الماء الملوث».

الاستفزاز، والقحة، وضحكة الزن الكبرى المحرِّرة. لا يميز الراهب بين الأمير والصعلوك، والأسد والدودة الصغيرة. لا يرغب في شيء، ولا يملك شيئا، الزن هو الحرية الكاملة.

من هو روشي الحقيقي؟

حكاية من أصل هندي

وجيه من وجهاء الهند، اسمه روشي، كان بخيلا خسيسا، شحيحا. هناك نوعان من البخلاء، جمّاعُ القروش الذي يكدس لمتعة التكديس، «لتغنيج ماله الظريف»، والشديدُ البخل المقتر على أهل بيته والمحيطين به، لينعم وحده بثروته. تلك كانت حال روشي، الأناني المقيت.

ذات يوم صيفي جميل بعد الظهر، ذهب إلى الغابة، ولم يكن برفقته سوى حمار محمل بالمأكولات. وجد هناك مكانا هادئا، فجلس، وتمدد، وأخذ كامل راحته، وبدأ يتناول طعاما وفيرا. أكل بشراهة لحما، وأرزا مبهّرا، وحلوى، خصوصا القشدة المحلاة التي أولع بها. شرب كثيرا من أندر الخمور، وأثمنها، وأقواها ثملا. أخيرا، لما امتلأ، كان سعيدا بشبعه، توجه إلى السماء، والطيور، وحيوانات الغابة، مفخما كلامه:

«أنا، روشي، هذا الآن مهرجاني! لدي ما أشاء من الخمر، وعظيمة هي ملذتي.

أتفوق على كل إنسان وأتجاوزه

أتغلب على شاكو، إمبراطور الآلهة!».

إلا أن شاكو[٢٧] سمعه مصادفة ذلك اليوم. وقد أغاظته وقاحة وغرور هذا الشخص، فقرر أن يعاقبه.

حينذاك، تجسد إمبراطور الآلهة، الذي يهيمن على اثنتين وثلاثين مدينة، في شكل روشي ووجهه، وحضر إلى منزله. ما إن

دخل، حتى أمر بفتح مخازن الغلال وتوزيع الحبوب بلا حساب على فقراء المناطق. وعندما لم يبق شيء، فرغ الخزائن وبدد الذهب، ونال منها الجميع من أدنى خادم وحتى أصغر غسال صحون. أخيرا، طلب ثقب البراميل، وانسكب الخمر بغزارة. أحاطوا به، وعانقوه، واحتفوا به. الابتهاج في أوجه، كان الناس يأكلون ويشربون، ويغنون، ويضحكون حين سمعوا أحدهم يضرب على الباب بعنف:

«يا ناس! أيها التنابل الملاعين، أليس هناك من يفتح لي الباب؟!»

كان هذا روشي الحقيقي وقد عاد من الغابة.

وصل الحارس العجوز، وساقاه ترتجفان قليلا من الخمرة التي شربها:

«من أنت؟ سيـ..سيـ..سيدي؟ تلفظ بصعوبة.

- أيها العجوز الأحمق! هذا أنا، روشي، سيدك!.

- لا يمـ... لا يمكن، سـيـدي في الـ... الـ... الداخل! » قال متعتعا، مبتعدا بوقار.

جن روشي غضبا، وراح يضرب على الباب، وصرخ، وأحدث صخبا جلبت أصواتُه كلَّ من في البيت. أدخلوه، فإذا به وجها لوجه مع روشي الآخر. من هو الحقيقي؟ العينان السوداوان الماكرتان نفساهما، الذقن ذاته والبطن المكور هو نفسه. أعطى كلٌّ رأيه. مال الخدم إلى إمبراطور الآلهة، وإلى جانبه أيضا وقف الأطفال متحمسين. أما الزوجة، فترددت. كانت ستختار فعلا الروشي اللطيف والسخي، لولا أن الآخر حدثها همسا عن خال

موجود على الجهة اليسرى من صدرها وكانت محتارة. القيِّم على البيت، وهو رجل فطن، أعرب عن أنه لا يستطيع القول وأنه ينتظر معرفة كيف ستسير الأمور. كاد الاختلاط لا ينتهي، غير أن الزوجة اتخذت قرارا: «هيا نسأل بوذا، قالت. هو وحده يعرف أسرار القلوب خلف المظاهر، وسينوِّرنا». استقبل بوذا روشي الأول والآخر في عليائه. «روشي الحقيقي هو ذاك الذي يتبع الطريق، قال، ويطبق العدل، ويظهر الأتما من خلال رحمته حيال كل مخلوق». حينذاك، عرف روشي المتلذذ والأناني، والبخيل، أن الجشع، وما أبداه من احتقار للآخرين حتى ذاك الوقت لم يكونا سوى أحداث، تشوهات، قناع يخفي وجهه الحقيقي. أما هو، روشي، مشارك بوذا في طبيعته، فكانت هنا حقيقته. وفي اللحظة ذاتها، استعاد شاكو شكله الأول، وعاد إمبراطورَ الآلهة، ورجع روشي إلى بيته، حاملا معه السلام والنور.

الزن، يعرف هذه الأشياء. ويدعو كل واحد إلى أن يميز، وراء مشكال[٢٨] المظاهر، عريَ، وبساطة وجهه الأصلي الوادعة. هكذا روى حكماء الماضي الحكاية.

الحبل الفضي

ذات صباح منير، كان بوذا يتنزه في الفضاء، على ضفاف بحيرة زهرة اللوتس، وكان يحلم تحت دغدغات الشمس الدافئة. وبينما هو منحن على ماء البحيرة، لمح رجلا يتخبط بعنف، وبدا أنه يستغيث. كان رجلا اسمه كنتوكا، لصا، فاسقا، قاتلا كريها، سبق أن صادفه خلال جولة له في الأرض. تذكر أن هذا الكنتوكا كان قد أظهر مرة في حياته شيئا من الطيبة. فقد حط عنكبوت كبير يوما على صندله؛ وبدل أن يسحقه، تركه يمضي وشأنه. سأساعده، فكر بوذا، لبادرة الرحمة هذه التي أبداها. من يدري، ربما بقيت بارقة كرم أخلاق لدى هذا الشقي. عندئذ، تناول خيط عنكبوت، وأنزله في البحيرة باتجاه كنتوكا. تحول الخيط إلى حبل فضي، فتمسك به الأزعر بقوة. وبدأ يصعد. تسلق بصعوبة، حيث استنفد كنتوكا كل قواه. كان يجدّ بيديه، وركبتيه، وقدميه، متعرقا، ولاهثا. وبعد قليل، لمح زاوية من السماء الزرقاء فوق رأسه. ضاعف جهده، بعد أن ألقى نظرة نحو الأعماق تحته. يا للهول!. كان عشرة من رفاقه القدامى يمسكون الحبل الفضي باذلين قصارى جهدهم في التسلق هم أيضا.

أخشى ألا يكون الحبل متينا كفاية لحمل الجميع، قال كنتوكا لنفسه. وتذكر حينذاك أنه يحتفظ في جيبه السرية بسكين القتل. «سأقطع هذا الحبل، فكر، وأتخلص منهم». وما إن لمعت هذه الفكرة في رأسه، حتى انقطع الحبل الفضي فوقه، وسقط ثانية في جهنم إلى الأبد.

تذكرنا هذه الحكاية بأسطورة أورفيوس. «حينذاك، وقد انتهى الحب، عادت يوريديسي بأسى إلى عالم الأموات»، يقول الشاعر الإغريقي[٢٩]، لا يمكن بالطبع مقارنة كنتوكا ذي الوجه المشطب والمظهر الوحشي بالحورية يوريديسي. إلا أنهما كليهما لقيا المصير نفسه. يوريديسي وقد خذلها زوجها الضعيف أورفيوس، وكنتوكا ضحية «أناه» وسجين ذاتيته.

في نهاية الأمر، الله هو العدل....

الرداء النوراني

عاش ذات مرة صياد فقير اسمه هاكيو ريو. لم يكن يصطاد إلا القليل جدا من السمك، ولا يعيل نفسه إلا بمشقة. أعوزه المال فلم يتزوج، وعاش وحيدا في كوخ بائس على مقربة من غابة صنوبر جميلة عند سفح جبل فوجي - ياما، الذي تتكلل قمته بثلوج دائمة. أمام بابه، كانت ساحة عريضة من الرمل الأبيض تمتد بعيدا، فيجلس متأملا الأفق الأزرق المنبجس من المحيط الهادئ. كان هاكيو يستمتع بهذا المنظر الخلاب، وغالبا ما يحلم. كان ذلك يساعده على العيش. ذات صباح ربيعي، وبينما هو يجتاز الغابة، رأى ثوبا رائعا معلقا على غصن شجرة؛ كان من الأرياش الفضية والذهبية، وبدا قماشه منسوجا من النور، فوقف هاكيو كالمذهول أمامه. أغراه الاقتراب منه، تردد قليلا، وألقى نظرة حوله. تناول الثوب، وحمله إلى كوخه. وأخفاه تحت كومة من الأخشاب. في المساء، قبل أن ينسل إلى النوم، جلس على الحصير، وأخذ يحسب ما يمكن أن يحصل عليه من سرقته. «سأذهب غدا إلى السوق، وأبيع هذا الثوب بثمن كبير، وأشتري شباكا جديدة وقوية، وربما قاربا، فأجني بذلك صيدا وفيرا وأغدو رجلا غنيا، وحينها أتزوج...». وغفا على هذه التخيلات الجميلة.

خلال الليل، رأى حلما. ظهرت له فتاة رائعة الجمال: «قالت، من الفضاء أتيت كي أزور العالم. لكنك أخذت ثوبي، ولا أستطيع العودة من حيث أتيت دونه. أرجوك، رده لي!».

قاطعها هاكيو:

«لا أفهم شيئا مما تقولين، لم أسرق ثوبك، الذي لم أره!. ولكن ما دمت في منزلي هذه الساعة من الليل، تعالي شاركيني الحديث». ولما همّ بالحديث معها استيقظ من النوم ترك هذا الحلم في حلقه طعما مرا، وخجلا. «كيف! قال لنفسه، كيف أسرق ثوبا رائعا، وأكذب على الفتاة، صاحبته، وأريد إجبارها على مشاركتي الحديث». وتذكر معلمَ زن عجوزا كان قد سار على تعاليمه في يفاعته. «لن تنال طمأنينة أو سعادة إن لم تكن عادلا، إن ابتعدت عن الحقيقة، إن لم تبرهن عن رحمة». وعزم هاكيو حينذاك على البحث عن الفتاة في كل مكان، وعلى ألا يذوق طعم الراحة قبل أن يعيد إليها رداءها النوراني. صباح اليوم التالي، توجه باكرا جدا إلى الشاطئ، وتفحص الأفق، عبثا. اقترب من غابة الصنوبر، فرأى فتاة حلمه باكية تحت شجرة. أعاد لها ثوبها. وشكرته بفرح غامر. ولما لبست رداءها النوراني، تحولت وأصبحت كائنا ظل يرتفع بهدوء نحو الفضاء، راقصة بحركات أخاذة. غالبا ما يعرض مسرح نو Nô هذه الرقصة الملائكية. إنه مشهد مذهل، أحد أجمل المشاهد التي يمكن تصورها. كان هاكيو أول من رآها، وأخذه الوجد. وعاد إلى كوخه. في الأيام التالية، نال من السمك ما وسعت شباكه. وتزوج، وأنجب أولادا كثيرين، وعاشوا جميعا سعداء زمنا طويلا، طويلا جدا.



هل هي حكاية زن، أم حكاية جنيات؟ يبدو «المغزى» تقليديا، وقد يمكن التعبير عنه هكذا: «الصدق، والعدل، والرحمة هي فضائل نكافأ عليها. يجب ألا نسرق». لكن هذه الحكاية تقول لنا

شيئا آخر، يرمز إليه الثوب النوراني، الذي يتيح، وحده، بلوغ السماوات ويمجد كل حقيقة واقعية. هنا يلتزم كلٌّ الصمتَ، ويصغي إلى حدسه.

❖❖❖

«أيها المعلم، القمر المضيء والوادع يسطع عاليا في السماء!

- نعم، هو بعيد جدا!.

- أيها المعلم، ساعدني كي أرتقي إليه.

- لماذا؟ ألا يأتي إليك؟».

القمر في دلو عتيق

الساتوري، يقظة الوعي المتبصر ببوذا، الاستنارة، حسب مذاهب الزن، تنبثق عند وقوع حدث مفاجئ، غير منتظر، أو مصادفة لا متوقعة، أو فرصة سانحة، في الأذهان المهيأة لتلقيها. وكما السارق في «البيت الخاوي»: النفس في خلاص من «أناها».

كانت راهبة تدرس الزن، يوما بيوم، منذ ثلاث وثلاثين سنة. كانت قد دخلت الدير كراهبة شابة مبتدئة لها من العمر سبع عشرة سنة. واليوم، صارت في سن الخمسين. حياة خصوبتها انتهت. ولم تشعر يوما بالمرارة لذلك. تفرغت للمشاغل اليومية بصبر، وثبات مزاج. كانت تحضر الأرز أو الشعير المحمص، وتذهب صباحا ومساء لإحضار الماء من البئر البعيدة مائة متر. أحيانا، تنتابها سحابة غم، فتطردها. كانت تمارس جلسات اللوتس بانتظام، وتتأمل، وتدرس كتابات كبار معلمي الماضي. إلا أن الساتوري لم تأتها قط، ولم تعرف الطمأنينة التي تفوق التصور، التي تغمر الروح المدهوشة فجأة، الضحكة، ضحكة اليقظة الكبرى.

ذات مساء، عادت من البئر وقد حل الليل. لمحت دون تفكير في الأمر صورة القمر في ماء الدلو. كان دلوا عتيقا، رممت قاعه بالخيزران المجدول. فجأة انخلع القاع، وانسكب الماء، وتلاشى القمر حالا مع ماء الدلو العتيق. في تلك اللحظة تماما، جاءتها الساتوري. فغدت حرة.

الزن تجربة حميمية، تتيح اتحاد المرئي واللامرئي، النسبي والمطلق، ما يمضي وما يبقى. الزن ليس الخير ولا الشر، لا النعم ولا اللا، لا الفارغ ولا الملآن.

«هو ما وراء عالم المتضادات، عالم قوامه التميُّز الذهني...»، كتب د. ت. سوزوكي [٣٠]، يتعذر فهمه، ولكن، ككل شأن بشري، وضمن روائع البوذية، له معابده، وتقاليده، وطقوسه، وقوانينه، ولغته. وهو مسيحي، إن كنت أؤمن بقيمة الزن في حياة مسيحية، إذ إن الزن غير مرتبط بأي دين، أو بأي عقيدة. يدعو إلى مزيد من الصدق والحقيقة، وإلى عدم التمترس في الدوغماطيقيات dogmatismes، وإلى تجنب التصلب في طقوس بلا حياة. ونتبين ثمراته لدى المعلمين الكبار: البساطة، والتجرد، وروح الاعتدال والتواضع، والرحمة، والمحبة، والفرح، والتوازن، والصفاء (يسمون الزن أحيانا دين الصفاء). إلا أن طبيعته الدقيقة عصية على التحليل. الزن كالنور، وما القول في النور، إن لم يكن أنه يضيء، ويحول، ويغبط الواقع الحقيقي! الحكايات، بين وسائل أخرى «بارعة» - التصوير، ومسرح نو، والرمي بالقوس، وشا - نو - يو (طقوس احتفال الشاي)، والعمارة، والحدائق، والشعر، (الهَايْكُو)، ووضعة اللوتس، والصمت... - تعبير، وتعاليم، وطريق. «بالإصبع نستدل على القمر»، يقول مثل صيني (والأبله ينظر إلى الإصبع). الزن مصباح منير، نار على الرابية، وعي متيقظ.

العندليب!

من بين مائة شخص،

كم واحد يلاحظه؟ [٣١].

فن الهَايْكُو

ماذا تعني الهَايْكُو؟

يجد الزن تعبيره الطبيعي الأكثر تلقائية في الشعر...

د. ت. سوزوكي، دروب الزن، دار ألبن ميشيل، ١٩٩٥.

الزن، إنه تلك السحابة النورانية التي اجتازت آلاف السنين، مارة بالهند، والصين، والتيبت، واليابان... واليوم بلاد الغرب. الزن، مرتبط أصلا بالبوذية، ومتوافق مع كل الأديان، والتراثات، والثقافات. الزن، يسمو على الـ «أنا» ليبلغ ملاءة «الذات»، الزن رافض للنزعة اللفظية [٣٢]، والمذهب العقلي [٣٣]، الزن هو القِحة، الفكاهة، الحرية، الزن محبة الجميع ومحبة كل شيء، الذي يعنى بأصغر عشبة في الحقول. في الهايكو، هذه القصيدة الوجيزة، البسيطة جدا والعميقة جدا، يجد الزن تعبيره الأكثر سعادة، وتوافقه الطبيعي.

الهَايْكُو haïku قصيدة، وكأي قصيدة، وقّع من فن اللغة، ترمي لأن توحي بالمعنى، والصورة، والإيقاع، إلى عاطفة، حالة نفسية. هناك الكثير من أشكال القصائد. وهكذا، في الفرنسية، قصيدة البلاّد، والنشيدة، والحنين، والهجائية الصغيرة، وذات الشكل الحر... وفي اليابانية، الهايكو هي قصيدة تتألف من ثلاثة أبيات: خمسة، سبعة و خمسة مقاطع أو وحدات صوتية أساسية.

هنا وهناك، نصغي

إلى الشلالات.

والوريقات [٣٤]

إلا أنها قصيدة فريدة، تكاد تكون تدربا روحيا. الهايكو، وهي ثمرة إفراط في الدقة، ونتاج قرون من الثقافة، لا تكشف عن عذوبتها إلا للأذهان الحفية، والقلوب المتيقظة. لا مجال فيها للتوقدات، والتصادمات الكبيرة للصور، ولا للصراخ والموت، والدم. الهايكو هي بساطةٌ، ورشاقة، وتعرية للجوهر. الهايكو، على طاولة خشبية، هي زهرة من حقل. إنها الزمن المرصود للصمت. ظرافة، وسر. طير يحط. لحظة هاربة، غصنُ أزليةٍ رقيقٌ. قصيدة الهايكو هي فرصة ممنوحة لنتكهن بكل شيء، لنحب كل شيء، في ومضة ثلاثة أبيات من الشعر.

قصائد الهايكو، على صفحات هذا الكتاب، بعضها من ابتكاري. والبعض الآخر كتبها مؤلفون من كبار معلمي الزن اليابانيين.

رجل عجوز
يبتسم.
لسفرجلة متغضنة



ورقة في الطين
أخواتها تمضي إلى الأمام
شامخة الأنف



مساء ربيعي
الطيور تهجع
النجوم تشتعل

❖

الساعة تتكتك

هِرٌّ يغفو

على ركبتين هرمتين



تحت المطر،

كأنها ملتوية،

شجرة الإجاص المزهرة



عصفة ريح ربيعية،

غصن تنّوب

يذهب ويجيء...



السنديانة العتيقة

تتأمل

أزهار شجرة الكرز

على صليب في المقبرة،

فرخ الشحرور

منتفش كله



عاصفة صيف،

البحر يرمي

مركبا شراعيا صغيرا

❖

صباح ثمل،

طير يغرد

كي يصحيه

بعد هذه المجموعة من قصائد الهايكو، لنستوضح الأمر. بعض القراء خاب أملهم. أتلك هي الهايكو وحسب، هذا الشعر الذي طالما كتمناه، هذه الحجر اللغوية الكريمة؟ لو أننا كنا ندرك على أقل تقدير. ولكن، يقول الصفائيون[٣٥]، الهايكو لا تفسَّر. ليكن. المبدأ حسن، غير أن ذكرى من طفولتي تميل بي نحو مُطْلَقيّة أخف وقعا.

أعود في انتمائي إلى عائلة من الموسيقيين. كانت جوائز روما تنهال عليها. كان عرابي يعزف على الكمان، وعمتي تعلم الغناء، ووالداي وأعمامي وعماتي وأقربائي وقريباتي كلهم ينفخون ويعزفون بشكل ما على آلة موسيقية ويستنبطون منها أصواتا متناغمة. كانت أمي أقلهم موهبة، وكانوا ينظرون إلي بشيء من الشفقة. وعزم أحد أعمامي على إنقاذي:

«ألا تحب الموسيقى، أيها الصغير؟

- قليلا، قلت، خصوصا الجوقة البلدية!».

انتفض العم روبير:

«الجوقة البلدية...»، كرر مرعوبا.

قادني حالا من أذني وأدخلني قاعة الموسيقى. هنا، كان علي أن ألتهم، من دون اعتراض مجموعة سوناتات لبيتهوفن. استمر العذاب ساعتين طويلتين. خرجت منهما مخبولا، مشمئزا إلى

الأبد من الموسيقى الكلاسيكية الجميلة.

إلى الأبد، ليس تماما، بالطبع. لكن الأضرار استغرقت طويلا حتى أصلحتها. دفعتني هذه التجربة، فيما بعد، إلى أن أنتهك هنا وهناك قاعدة الهايكو غير المكتوبة. «البرق لا ينبسط».

ها هو مثال أول. إلا أن محاولة الشرح هذه لن تكون بديلا للبديهة. القارىء هو خالق قصيدته، يخترع غناءه الخاص.

السنديانة العتيقة

تتأمل

أزهار شجرة الكرز

ترمز السنديانة إلى القوة، المتانة، والدوام. أعراس السنديان، ثمانون سنة من الحياة المشتركة، هي «إفرست»الزواج!.

الفعل «تأمل» يشدد على أناة النظر، ويشير إلى موقف التفكر العميق.

أزهار الكرز بالغة التأثر، وعابرة، وترمز في اليابان إلى الوقتية، عدم الدوام.

المشهد الذي توحي به الهايكو يجمع رمزين متضادين. ولكن، في هذا العالم، كل شيء يمضي، يمر، والسنديانة ولو عاشت ألف سنة فإنها ماضية هي أيضا كما زهرة الربيع. صمت...

هَايْكُو الخريف

القمر الخريفي؛
تشردتُ طوال الليل
حول البحيرة (٣٦).

باشو

من تقاليد الهايكو تحديد الفصل من السنة. والـ kigo أو «كلمة الفصل»، هي التي تدل صراحة أو بصورة غير مباشرة على وقت السنة. ها هي بعض الأمثلة بمعية الخريف:

هذا الدرب
لا أحد يطرقه
إلا المغيب الخريفي (٣٧).

باشو

طلوع النهار
ضباب جبل أساما
يزحف على الطاولة (٣٨).

عيسى

بذلت جهدي لأقلد كبار المعلمين، وأن أخلق بدوري هذه اللحظات السحرية. ولا ندري إن كنا قد وفقنا، غير أننا سعدنا عندما اختلج قلبنا قليلا.

ورقة صهباء
سقطت؛
صمتٌ

الورقة الميتة في الممر
تعدو أسرع
من العلجوم



حصانان يرعيان
الضباب الخريفي
على ظهرهما



في الغابة
جامعِ الفطور
وَخَطَه الشَيّب



مطر خريفي
الشارع ينتظر
عابرا



قمر تشريني
مزقت وجهه
الغيوم



من فوق الدرب الصغير
الأوراق الصهباء
تتساوى

زنبقة اليوكا

أوراقها عنيدة

الريح تهب عبثا



على الطريق الصحراوية

عربة تمر.

إنه عيد ميلادي



تترافق قصائد الهايكو أحيانا بتعليقات حول حياة المؤلف، فتقربها من الواقع وتشرحها. وأجيز لنفسي اللجوء إلى هذا الأسلوب. أقيم في قرية من ثلاثمائة نسمة تقبع في قلب الغابات. على الطريق أمام بيتي، أرى مرور سيارتين وجرارا زراعيا أيام الازدحام.

البتولة (٣٩) العجوز

منتصبة تماما، بلا كلام،

مطر خريفي



على النافذة،

غصنُ صفصافةٍ

يحيّي بلا كلل



ديك يصيح،

الغيوم تتمطى؛

الصباح خريفي

❖

العشب الصبور

يتلقى

الأوراق الخريفية



حصان عجوز

يعضّ الحاجز

ضباب خريفي



كستناءةٌ،

قشرتها مفتوحة

على الدرب



كتب الروائي والشاعر الياباني ناتسوم سوسيكي Natsume Soseki (١٨٦٧ - ١٩١٦)، قائلا في الهايكو:

لنفترض أنك غاضب، اكتب حول هذا الغضب، وسيتبدى لك فورا أنك تصف غضب الآخرين. لا يمكن لأحد أن يكون في غضب ويكتب الهايكو في الوقت نفسه [٤٠].

تمنح الهايكو المؤلفَ، دون شك، وقفة على مسافة من الذات، وتجردا، وشعورا بالحرية والسلام، أنه يبّسطها على القارئ. قراءة الهايكو هي دخول إلى واحة.

أي مشاعر كانت تنتاب سوسيكي عندما أقام في معبد ذهبي كي يعاين شلالات شيراي و كراكاي. لا تخبرنا الهايكو التي نظمها بشيء عنها.

جبال خريفية،

هادئة الغيومُ

تجول [٤١].

الغيوم تأتي،

الغيوم تمضي

نحو الشلال، أشجار القيقب محمرة [٤٢].

❖

هذا الصباح، هوت هجمة مطر سيلية على قريتي. خربت المشهد، فامتحنتُ نصائح سوسيكي، وكتبت:

المطر يتوقف،

زهرة

ترفع رأسها

الممر العريض

أصبح نهرا،

أصطادُ من نافذتي!

تسلقتُ تلة الكروم وتبينت الأضرار:

رف طيور الزرزور

يداعب

الأعناب السود

أنظرُ عظاءة

بين حجرين،

تنظرني هي أيضا

تأمُّل

ليس كل قصيدة من ثلاثة أبيات هي هايكو. لا يكفي في ذلك الإيحاء بصور الطبيعة، والحيوانات، أو الفصول. في كراسة كل تلميذ أبيات شهيرة من الشعر لـ «فيرلين»:

نحيب

كمنجات

الخريف الطويل

هل هذه قصيدة هايكو؟ ثلاثة أبيات، وإيجاز، وكلمة دالة على الفصل... قد نتردد. لكن الشاعر يكتب النهاية اللازمة...

يهدهد قلبي

بخمول

رتيب

والباب المفتوح لحظة انغلق. حنين، ونواح منغلق على نفسه. الأشعار جميلة، غير أنها لا تُقرض بالهايكو.

لنصغ على نحو مواز إلى راهب الزن باشو:

على غصن عريان

حطّ غرابٌ؛

مساءٌ خريفي (٤٣).

تشرين الثاني عند الشفق. حط غراب على غصن تجرد من أوراقه. البقية صمتٌ، حرية. على مؤلف الهايكو التخلي عن الصفات في أغلب الأحيان، وعن الاستعارات دائما، عن «كمنجات الخريف»، والتأججات، والغضب، والرومانطيقية، والحنين

المجامل. إنه عمل تجرّدي. يجب أن يلتقط الصورة بقوة، ويجمع بين يديه الحاضر كله، ويخلي مكانا للصمت. يمّحي، ليولّد في القلب الشرارة، ليمنح فرصة من اللاتناهي أيا كان وسعه للمطلق. الأزلية هي الآن.

على غصن عريان.
حط غراب...

على مؤلف الهايكو ترقب اللحظة المميزة وألا ينتظر أي شيء، أن يكون متيقظا، أن يتقبل. يعمد أحيانا، إلى الضحك، والمفاجأة، والابتذال، وكل الوسائل الحاذقة في تراث الزن، كي يرد إلى اللحظة الهاربة الانتباهَ المجرد، ذهنَنا الشارد. كل من يقرأه يجد طريقه، لحظةَ تَيَقُّظِه.

أتذكر انصعاقي، هذه النار بين جوانحي، ذاك الرجاء وذاك السلام معا، عندما قرأت أول مرة قصيدة الهايكو لباشو:

سمك المرجان المذهَّب الملَّحُ،
لِثاهُ الباردة
عند السمّاك[٤٤].

كنت أتنزه على الطريق الضيقة اللامعة بالأمطار في أعالي قريتي. حولي الكروم، ووادي اللوار. قفزت تلك «المرجانات الذهبية» مع ذلك إلى وجهي، فرجعت فجأة ثلاثة قرون إلى الوراء نحو تلك السوق اليابانية، حيث كانت الأسماك تكشف عن لِثاها على بسطة بائع السمك. ونظمت بدوري في حمية ذهن قصيدةَ هايكو:

بزّاقة،

برتقالية

على القار الأسود

هذه الصورة اللحظية، هل تلقى صدى في ذهنِ متلقٍّ، في نفسٍ متهيئةٍ؟ ألقيها للريح المتقلبة التي توجه القصيدة... ولما أعود إلى قراءة هايكو باشو، أقع على هذه القصيدة:

عند نحات الحجارة،

تزهر الأقاحي

بين الحجارة (٤٥).

قيل كل شيء، حتى الإيحاء بالفصل (الأقاحي). «من قنوط يتركه فينا، نعرف الجَمَال»، كتب الشاعر فاليري في «دفاتر». كيف نجرؤ على تقليد المعلمين؟

الهايكو والحنوّ

غيمة بيضاء

تمر موشوشة

فوق أشجار الموز (٤٦).

شيكي (١٨٦٦ - ١٩٠٢)

الحنوّ! «دعها مفتوحة بيننا بوابةَ الحنان، التي يعرف الأطفالُ والقططُ والطيور كيف يجدونها بين أولئك الذين يتحابون...»، يقول الأديب جيرودو.

فسحة الغفران، الثناء غير المستحقّ، الحنان. إنه ليس الحبَّ الذي يغنّي، يصرخ، ويحرقنا، الحب الذي يخرب كل شيء، إنه شيء أقل عنفا، وألطف، شيء لا يصبر على القسوة، نباشره بسهولة، نوشك أن نهمله، الحنان. ولكن، إن افتقدناه يوما، يحدث أن نهلك، كما الأطفال الصغار.

كبار مؤلفي الهايكو، باشو، بوزون، عيسى، سوزكي، شيكي، كويو... لكل منهم شخصيته، طابعه الفريد. ريوكان هو شاعر الحنان. العام ١٧٥٨ ولد ياماماتو إيزو، المسمى ريوكان، ويعني ذلك «الطيب، الكريم النفس»، كان والده عمدة قرية، حارس معبد الشينتو. في ربيعه الثامن عشر، ترك الفتى إيزو أسرته الثرية، ودخل الدير البوذي. كان ريوكان، كالقديس فرنسوا الأسيزي، الذي فكر فيه أحيانا، يهتم بأكثر الكائنات ضعة، ويحس بالحنو نفسه نحو الطيور، والأزهار والحشرات:

براغيث، قمل

لا يهم أي حشرة

خريفية تشدو،

صدري

بَرَاحُ موزاشي[٤٧].

❖

يمنح رأفته للجميع ولكل شيء:

مطر ربيعي

أمرر يدي بلطف

على اليقطينة المصدوعة[٤٨].

يهتم ويحنو على الخيزران:

نداوتُها،

يصعب نسيانُها

خيزراناتُ هذه السنة[٤٩].

يحكى أن خيزرانة صغيرة راحت تنمو على تربة كوخه الجرداء. لما رآها تكبر، وتشمخ بيأس تريد إطلالة نحو الهواء الطلق، سعى إلى أن يحدث فتحة في السقف، وأشعل نارا بغير أوانها في مسكنه. حينذاك، أخذ معاصروه، المعجبون ببراعته في الخط، وشاعريته، ينادونه بمودةٍ «تايغو»، «الأحمق الكبير». كان مثالا لإنكار الذات، والصبر اللا محدود، والحنوّ اللا متناهي، والبساطة، والحكمة الغامضة. ذات ليلة، جرده لصٌّ من كل ثرواته الصغيرة: ثيابه، قصعة أرز، وقرعة مفرغة، وعصاه. أسف أن زائره الليلي لم يحمل معه القمر الذي كان يسطع بكل ألقه عبر زجاج النوافذ:

اللص أخذ كل شيء

ما عدا القمر

على النافذة [٥٠].

١٦ يناير ١٨٣١، في عز فصل الشتاء، مات في كوخه، وأمكننا أن نحلم بتمتمته هذه الهايكو الأخيرة:

هرمٌ الجسمُ

خدَّره البرد

الخيزرانات تحت الثلج [٥١].

ريوكان، شاعر الحنو، يوقظ فينا زاوية براءةٍ دفينة.

ربما لامتني النفوس المغمومة أنني أتكلم عن حنو بدلا من تكلمي عن «رحمة». الحنو من الخصال، والرحمة من الفضائل. وهذه أسمى في البوذية دون شك. لنصغ إلى ما يقوله عنها الدالاي لاما في كتابٍ عنوانُه الدقيق «قدرة الرحمة» [٥٢]:

«لأن بنيتنا الإجماليةً (الجسد والعقل) مكيَّفة مع بيئة تنطوي على المحبة...كل واحد يشوِّقه هناء الآخر، بغض النظر عن الموقف الذي يمكن أن يبديه هذا الآخر تجاهنا. تلك هي الرحمة.

تبقى الرحمة عنصرا أساسيا لا يمكن لأي نشاط بشري أن يكون نافعا دونه».

الكلمات تحتمل العديد من المعاني. شفقة كانت أم حنوا، فالمهم هو مقدار محبتنا. في ثقافتنا، كلمة «رحمة» فيها شيء من معنى القسوة، والحزن، وتلامس كلمةَ شفقة، التي غالبا ما تضفي شقاء على الشقاء. أظهر ريوكان، الذي كانت على جبينه علامة البراءة، مثل هذا الاهتمام بالآخرين، وحتى بالحشرات، والأزهار، والكثيرَ من العذوبة والرقة في موسيقيةِ وتجويدِ خطوط قصائده، وفيضا من الفرح الصافي، وقد آثرت افتئاتا أن أستخدم بصدده كلمة حنوّ.

من ضفائر أطفالِ
خوالي الأيام، الذكرى
البنفسجاتُ (٥٣).

أناقة الخط، وموسيقية القصيدة، وتقاربُ - وليس استعارة - الأطفالِ والزهورِ في فصل الربيع. أليست كلمة حنان هي التي تثب إلى الشفتين؟.

الهايكو والفكاهة

إنها خضراء
كان يمكن أن يكفيها ذلك،
الفليفلةُ (٥٤)

(باشو)

لا خبث، أبدا، في فكاهة الهايكو.

لا نقع فيها على الدعابة السوداء، ولا على «القسوة المتوهجة» الدارجة، مع خيالات حرابها وسيفها اللامع تحت أشعة الشمس. فكاهة الهايكو ترفيهية، الحنان فيها ظاهر. إنها افترار ثغر، وتجرُّدٌ في موقف ذاك الذي يعرف أنه ليس في النهاية لاعبا يكسب، ويرضى الحياة بقلب رضي وعزة نفس. بين سخرية رقيقة ورحمة. فكاهة الهايكو هي حركةُ رقص، نارُ مرح للحرية الداخلية. وصحيح أن مؤلفي هذه القصائد الصغيرة، المشربة بروح الزن، يؤمنون بالمطلق فيما وراء الأشكال العابرة. في ذلك، وهو أمر أدركه، ما يُنقِص من ميزتها إلى حد كبير، غير أنه لا ينتزع شيئا من متعة قراءتها.

لم يتمنع كبار المؤلفين عن هذا الخبث المليح. هذه أمثلة اقتطفناها من بين قصائد من يتصدر هؤلاء، راهب الزن ماتسوهو باشو:

في كوخي
كل ما عندي لأقدمه لك،
هو أن البعوض صغير (٥٥).

أنعبر بدقة أكثر من هذه. ها نحن نطمئن...

ثلاثة رجال يلتقون
ليحتفلوا بالعام الجديد
ويتخاصموا (٥٦).

كـيف ينبـغي أن يكون رأينا بجنون الناس وهم يقـرأون هذه الملحة؟ يرويها لنا المؤلف بمزيج من المفاجأة والرحمة، مضيفا تلك القـشرة من الابتسـام العطر الذي يضـفي عليـها كل العـذوبة.

الكركي طائر مستحب، غير أنه عندما يصيح!...

الكركي يصيح
بصوت تتمزق له
شجرة الموز (٥٧).

يجب أن نعـرف أن «تبـويق» الكركي لا يشـبـه فـي شيء تغاريد العنادل. ليس ذاك الصـوت «القـاطع للحرير» هـو مـا يحـدثنا عنه الشـاعـر، بل ذاك الذي يمزق أوراق الموز السميكة... (باشو تعني في اليابانية شجرة الموز).

أنتزعُ شعراتي البيضَ
تحت وسادتي
جرادةٌ تئزّ (٥٨).

يجـري الشـاعـر تحـويـلا مضـحكا بينه وبين الجـرادة، مع لمسـة سويداء خفية. هذه الهايكو هي رائعة صغيرة.

قصيدة الهايكو الأخيرة هذه، التي يسخر فيها المؤلف من نفسه بلطف، تضحك من «وضعنا البشري»، مثلما قال المفكر مونتنيه:

الغراب، عادة أكرهه،
ولكن مع ذلك... هذا الصباح
على الثلج (٥٩).

كم نحن متقلبون في الواقع، وكم هي وقتية مشاعرنا. قليل من الجمال يستميلنا، وأي شيء يغوينا، ويجعلنا نغير دربنا. هذا الوهي، هذه الغواية، هذا «التحويل» المفكِّه عند الكاتب يدعونا إلى التفكّر حول أنفسنا. وهكذا، بظرف الفكاهة، كما بالسويداء، والأشياء الباعثة على الضحك، والغنائية العاقلة، والصورة الفجة، أو غناء القصيدة، تؤدي الهايكو أنشودتها العنيدة، وتردد على مسمعنا: استقبِلوا، أحِبّوا.

أقدم بعض قصائد هايكو الخبث المليح. أعرف ذلك، في المقارنة قسوة. لكن النية سليمة. أمهد الطريق. حاولوا أنتم أيضا...

أبدِعوا قصائد هايكو مع مسحة من الفكاهة، عايروا الصورة، والابتسامة، والحنو، والحذق، والنكتة الخفيفة الظل، أن تقبضوا على اللحظة التي تمر فذاك تمرنٌ على التطهر الشخصي. حاولوا، وستكتشفون بين أضلعكم ينابيع تجهلونها، زوايا من الشعر، واحات من السلام والحكمة.

ليلة صيف،
القمر مِحْطَبٌ صغير
يبدو قصيدةَ هايكو

قال فيكتور هوغو: «هذا المنجل الذهبي في حقل النجوم». المنجل يجوز أيضا، خصوصا ذو المعدن الثمين، بل «المحطب الصغير»!. الإهانة جلية. الجرم السماوي الذي تغنى به الشعراء منذ الأزل...مِحطبٌ صغيرٌ هزيل!. صحيح أن الهايكو بأبياتها

الثلاثة الصغيرة ليس فيها إلا ما قل من المظهر.

تشرين الأول الذي ينتظر

أولَ فأرة

من تشرين الثاني

هل سيمسك بها؟

على الصنوبرة المستلقية

صَعْوةٌ (٦٠)

فنزعتُها عُرفٌ

طولها تسعة سنتيمترات، وتزن خمسة غرامات وهي مبللة...

سرب زرازير،

حفنةُ بزور

ألقيتْ على السحب

تداعي أفكار مفكِّه!

الحزّورة

الضحك، والفكاهة، وحتى المخيِّلة هي جزء لا يتجزأ من الزن. ها هي لعبة في هذا القسم من الكتاب.

سبع قصائد هايكو. خمس من بنات أفكاري، واثنتان لكبار معلمي الزن الشهيرين. هل سيمكنكم فك بعضها عن البعض الآخر؟ أعرف تماما أن الترجمة إلى الفرنسية تذهب بالموسيقية، وبالخط المجوَّد الجميل جدا في اللغة الأصلية، وتشوه اللعبة قليلا. ولكن تبقى بساطة المعلمين الرائعة، العمق، المدى المفتوح على الصمت.

١- المعبد، التلة،
طير
يرسم خطا،
٢- الثور في المرج
يحني عنقه،
ملاطفتي تتعثر
٣- الحديقة المجاورة،
عبر فتحة فاغرة
في الجدار الطيني،
٤- السهل بعيدا
يشمّر تنورته
ويلامس السماء
٥- النقّار الأخضر

يتأمل

خشبَ كوخي القشي

٦- العشب الرطب

بالندى،

صباح ربيعي

٧- نيسان

برد قارس،

ما رأي البنفسجات فيه؟

هل عثرتم؟ اقرأوا مرة أخرى بتمعن، حاولوا ثانية...لا شيء حتى الآن؟ تعزوا، فلكل منا ميله، ذوقه الخاص.

سأدلكم على الحل في نهاية هذا القسم. بانتظار ذلك، ألغوزة أخرى. هاهي قصيدة هايكو، فجاجتها معلنة، يدهشنا مرحها البهيج:

صَعَدَ على السطح

الصَفَنُ أَنْحَلَتْهُ

ريحُ الخريف

من هو مؤلف هذه الأبيات غير المألوفة؟ باشو، المعلم المبجل، صاحب مدرسة، أمير الهايكو؟ هل هو أحد تلامذته: ريوكو، جوغو Jügo، كاكيي؟ Kake، توكوكو Tokuku، ياسوي Yasui، شينسكي Chinskei، جوسو Joso، موكوستسو Mokusetsu، عيسى Issa (١٧٦٣ - ١٨٢٧)؛ أهو ملاحِظ الحياة اليومية الدقيق، سوسيكي، الروائي (١٨٦٧ - ١٩١٦)، أليف الغرب، أم أنه بالأحرى أحد أولئك الشعراء قليلي الاحترام مثل تاكاري كيكاكلو Takarai Ki-

kaklu (١٦٦١ - ١٧٠٧)، الذي لم يكن يخشى الممازحات الداعرة؟

أيكون بوزون (١٧١٥ - ١٧٨٣) الرسام الكبير الذين ندين له بصورة لباشو، أستاذه في الشعر، وقد رسمه وفي يده عصا ترحاله الدؤوب، أم أيضا سيكاكو Saikaku (١٦٦١ - ١٧٠٧)، الذي نظم بروح من التحدي أربعة آلاف قصيدة هايكو في نهار واحد؟

لا، صاحب هذه الأبيات هو ذاك الذي لا نشتبه أبدا في أنه يفعلها: الرقيق، والمتنوع، من موهبتُهُ مُداعَبَةٌ، فرنسوا الأسيزي قديس البوذية: ريوكان!

حقا الزن حرية مذهلة.

[الرقم ٣: ريوكان [٦١]؛ والرقم ٥: عيسى [٦٢]].

الهايكو والزمن المقتطَف

ذات يوم أحد من شهر يناير مكفهر وعذب. كنت أتنزه في الغابات المحيطة بقريتي. أستحم في أغصان أشجار البتولة والكستنة والسنديان المورقة بألوان ذهبية وصهباء، وتحت قدمي تطقطق الأوراق الميتة. فجأة، بعيدا عني بخطوات على الدرب، انبثقت من قلب أجمةٍ ثلاثةُ يحامير [٦٣]، ذكر وأنثيان. شعرها بني وأصهب، ورؤوسِها منتصبة عاليا، وما هي إلا لحظة حتى زاغت مؤخراتها كبرق أبيض. لم يدم ظهورها سوى عشر من الثانية. ظننت أني في حلم. اللحظة السحرية هربت مثلما يتسرب الماء بين يدي. حينها، نظمت قصيدة هايكو عفويا:

ثلاثة يحامير

برؤوَس شامخة،

قافزة بأرداف ثلجية

الهايكو، هذا «اليتيم» حسب قول الاختصاصيين، أي البيت الواحد من الشعر المنطوق في ثلاثة أقسام هو شعر اللحظة المباشرة. تتحول نقطة ماء اللحظة إلى نقطة شفافية. ذاك هو «الزمن المقتطَف».

يوضح بعض نصوص باشو وريوكان هذا الوجه من الهايكو على نحو عجيب:

القمر في كل مظاهره

قممُ الأشجار

تحتبس المطر [٦٤].

(باشو)

من طرف العشبة،

ما إن تسقط

القُطْرُبُ [٦٥] حتى تطير[٦٦]

(باشو)

وهايكو ريوكان هذه، لم أستطع قط قراءتها دون أن أنذهل سعادة...

ثمِلٌ قليلا

خطوتي رشيقةٌ

في ريح الربيع [٦٧].

... الريح التي تستيقظ، الريح المترنحة، ريح الربيع. تسرع في أسر قلوبنا. ها هي هنا على عيوننا، على خدودنا، على شفاهنا في أزلية اللحظة النضرة.

الهايكو والصمت

الصمت أعمق مغزى من الكلمات
وكل ما يتكلم هو من لحم فانٍ...

لوي رينيه دي فوريه

Poèmes de Samuel Wood

صمت الزن ليس فقط غيابَ الأصوات أو سكونَ العقليِّ. لا ينتهي عند هذا الجانب السلبي، الدفاعي. لا يمكن تعريفه نقصا، حرمانا في المثيرات الخارجية، أو الداخلية. صمت الزن هو فتح، مغامرة، باب مشرع على اللا متناهي.

نحن قطرة ماء في محيط الكون. «ولكن، هل تعرف نقطة الماء أن: المحيط فيها؟»، يتساءل المثل الصيني. هل نعي روابطنا بالكون؟ «حياتنا الصغيرة» تنصهر في «الحياة الكبيرة». هي نحن، ونحن هي. هذه الأشياء لا نتعلمها إلا في الصمت. والهايكو، هذا الكلام الوجيز، شعر الزن، اللحظة التي تحط على حافة الصمت، تجعلنا ندرك، هنا والآن، بصدد طير، قمر، خيزرانة...هذه المحبة المتبادلة، وأحيانا حتى ضياء المطلق المبهر، الهارب:

القيّقب،
خشبةُ خيزران كبيرة
تراقبُ القمرَ (٦٨).

باشو

يعتبر ماتسوهو مونفوزا، الملقب «باشو» (شجرة الموز)، اسم مقتبس من صومعته (باشو - أن)، أعظم شعراء الهايكو. ولد عام

١٦٤٤ من أسـرة Bushi(المحـاربين)، وشـغل وظائف عـدة على علاقة بمرتبته الاجتماعية حتى عام ١٦٨١، في عامه السابع والثلاثين، صار راهب زن. بعد سنوات من الاستغراق في التأمل، بدأ يرتحل عبر البلاد، ولم تنته أسفاره بعد ذاك إلا بموته، عام ١٦٩٤.

شهرة الشاعر باشو، تعاليمه، اجتذبت إليه الكثيرين من التلاميذ. وقصائد الهايكو التي نظمها هي دائما تقريبا نهايةُ حكايةِ رحلةٍ، خاتمةُ قصيدةٍ طويلة، كلماتٌ في الحكمة. لنتصور المشهد. ينتهي المعلم من الكلام، التلاميذ جالسون على مقربة منه، وقصيدة الهايكو تتسرب إلى داخل كيانهم، متأملين طويلا في حرم الصمت(٦٩).

شمسُ شتاءٍ
على حصان
صورةُ الظل المتجمدةُ (٧٠).



حديقة في الشتاء،
القمر مثل خيط
صوتُ حشرةٍ (٧١).



أصوات الناس
تعود إلى الطريق،
مساءٌ خريفي (٧٢).

«مكثنا جالسين وقتا طويلا في غاية الصمت» (زيارة معبد كاشينو). باشو

ثلاث قصائد هايكو، ثلاث صور أخاذة. التمثال المتجمد على حصانه، في جماد أبدي، على ما يبدو. القمر الجديد بهلاليته الرقيقة، وطنين الحشرة الناعم، خيوط تمتد نحو اللا متناهي في هذه الحديقة الشتائية.

هذه الأصوات التي ترجع إلى الطريق، أصداء أصوات بعيدة أو متلاشية...

إلا أن الزن هو خبرات شخصية. يعاش أفضل مما يحكى. كلٌّ يسلك طريق القصيدة التي تفضي به إلى الصمت، إلى السكينة الداخلية.

زهرة سقطت أوراقها
المطرُ،
ذات صباح خريفي

❖

عُلّيق السياج
يمد أذرع
الرجاء

❖

حبات المسبحة
بين أصابعي،
يحلُّ الليلُ

خطوتي على الطريق؛

سماء الشتاء

تصغي...



صوت خطوتي يتوارى، كلمات قصائد الهايكو تتبدد في الضوء والصمت.

الجزء الثاني

الكركي الرمادي

«يحدث شيء ما كما في أريحا عندما أسقطت قوة الأبواق ولجاجتها جدران المدينة، سوى أن [...]الجدران هنا هي تلك التي تحبس الذهن، مدعية أنها تحميه».

فيليب جاكوتيه [٧٣]

كان ذات مرة... الزن

لجأ معلمو الزن دائما، طيلة القرون، إلى الحكاية لنقل تعاليمهم. وقصة الزن حكاية قادمة من أعماق العصور، من الهند والصين، واليابان، صقلتها حجارة الزمن، نستعين بها لنكتشف: الخفيَّ في المرئي، والمطلق في النسبي، والأبدي تحت معالم الزائل.

ها هي ثلاث وثلاثون حكاية، أبطالها ثعلب، وسلحفاة، وحيّة، وتنانين، ورهبان، وحمار، وأسد، وأرنب أبيض صغير، ومحظية جميلة، وامرأة من جليد، ومسطرين مسحور وطبل سحري، وقرد، وغراب، وساموراي نبيل، وكركي رمادي مؤثر.. كلماتٌ، «سحرية» حقا، تمس فينا شيئا من حلاوة الطفولة، وتساعدنا عبر دروب غير مألوفة على اجتياز «الباب حيث لا باب»، وتجعل نوال الحرية المدهشة، والحكمة، وسر الزن أيسر بلوغا.

الساموراي النبيل

ذات نهار صيفي جميل، وبخطى واثقة وهادئة، بهيئته المميزة من «كعكة» شعره كرجل محارب، وردني قميصه المعدنيين، وأهداب درعه الأربعة، وسيفيه التقليديين، دخل ساموراي نبيل إلى نُزُلٍ ريفي بسيط. نحن في القرن الرابع عشر، في قرية من جزيرة هونشو الكبيرة [٧٤]، كانت سحابة من الحشرات تطن في الهواء المثقل بالحرارة.

جلس الساموراي النبيل، وطلب صحنا من الأرز. فك أعلى درعه، ووضع إلى جانبه سيفيه باحتراز واحترام. كان المسافر الوحيد. أخذ يأكل، حاملا القضيبين الصغيرين إلى فمه، بحركات دقيقة متناغمة. في هذه الأثناء، سمعت صيحات صاخبة. اقتحم ثلاثة مُقاتلين، محاربين متشردين، لا قائد لهم «دايميو»[٧٥]، هم في الحقيقة أقرب إلى قطاع الطرق منهم إلى الساموراي الحقيقيين، الصالة فجأة. نادوا صاحب النزل بفظاظة، طالبين جعة الأرز، وجلسوا متدافعين. كانت سيوفهم تلمع. فجأة، لمح أحدهم الساموراي الصامت، وأنفه في قصعته، وسيفاه الرائعان إلى جواره. أومأ إلى رفيقيه. تبادل المقاتلون النظرات، وتهامسوا. الساموراي وحيد، لم يرتب بشيء. صاحب النزل، وهو رجل غير محارب، لم ينو على شيء. كانوا ثلاثة. وضعوا أيديهم على مقابض سيوفهم، وتهيأوا للانقضاض. في هذه اللحظة، رفع الساموراي النبيل قضيب يده اليمنى الصغير دون مبالاة، وبحركة حادة وقاطعة، سريعة كالبرق: «كلاك، كلاك، كلاك!»، قتل ثلاث

ذبابات كانت تطنطن عند أذنيه؛ وتابع الأكل بهدوء، دون أن يرفع وجهه عن الطبق.

ترك المقاتلون الثلاثة ثلاث قطع نحاسية على الطاولة، وغادروا النزل بصمت.

عندما يتطهر أحد مريدي الزن من الرغبة، والاغترار، والخوف، لما يتلاشى «أناه»، حين ينفتح على لا متناهي الأتما في داخل ذاته؛ حينذاك يمكنه أن ينتصر بلا سيوف أو حراب، دون قتال.

اللص والراهب

كان هناك ذات مرة لص شديد الإيذاء، بالغ القسوة. لم تخبرنا النصوص القديمة باسمه. قيل إنه عاش إبان حقبة هي آن (٧٩٤ - ١١٨٥)، في ظل حكم الإمبراطور الحكيم جو - سنجو تينو، بعد العام ١٠٠٠ بقليل. وتذكرنا حكايته بحكاية جان فالغان، بطل رواية فيكتور هوغو: البؤساء.

نتذكر تلك الواقعة، حين فر جان فالغان من سجن الأشغال الشاقة، واستقبله صاحب السيادة ميريال، أسقف مقاطعة دينيا. هرب جان فالغان صباحا، ومعه صحن من الفضة وشمعدانان. ولما أوقفه الدرك، ساقوه إلى الأسقف، الذي قال أمام دهشة جان فالغان:

«هذا الرجل لم يسرق، أنا أعطيته الصحن الفضي والشمعدانين، دعوه يذهب في حال سبيله». حينذاك...التمع ضوء صغير في نفس المحكوم بالأشغال الشاقة، نور صغير غير حياته.

في حكاية الزن، السارق هو قاطع طريق، لا إيمان عنده، ولا شريعة، وخلافا لجان فالغان، فقد سرق بالفعل شيئا آخر غير الخبز. لكن الحكايتين متماثلتان.

في ذلك الحين، عاش في ضواحي هي آن كيو(٧٦)، في معبد ناء داخل الغابة، راهب عرف بسعة حكمته، اسمه شيشيري كوغون. في ذلك المساء، كان الورِع بمفرده. كان يتلو بعض نصوص السوترا (٧٧) قبالة تمثال للبوذا. فجأة، انفتح باب المعبد دون روية. اقتحم رجل، مخيف الشكل خشن الملبس، قاعة الصلاة. ووضع

سيفه الطويل المشوق على عنق شيشيري:

«أيهــا الراهـب! صـرخ، هـات أمـوال الـصـدقـات، و إلا قطعت رأسك وجعلته يتدحرج تحت المذبح!».

كان شيشيري قد استقام في وضعة السيدهاسانا (الجلسة المكتملة)، بظهر مستقيم، وركبتين منثنيتين، وبقي على وضعه، دون أن تتحرك عضلة في وجهه:

«خذ المال في إناء الأعطيات، قال، لا تزعجني وأنا أصلي».

وتابع تلاوة السوترا.

توجه اللص نحو المكان المحدد، وراح يملأ جيوبه. في عجلته، كانت النقود ترن، وتفلت منه شتيمةٌ أحيانا، كلما وقعت قطعة على الأرض. ويجب أن نعترف أنه كان مرتبكا بسيفه الكبير.

بعد لحظات، ودون أن يلفت رأسه، قال الراهب:

«لا تأخذ كل المال، يجب أن أدفع غدا صباحا الضريبة المترتبة على المعبد».

ترك اللص، الذي أذهله ما أحسه من رباطة جأش في صوت الراهب وهدوء أعصابه، بعض النقود في قاع الوعاء، متذمرا.

ومضى مع غنيمته، حينما قال الراهب أيضا:

«عندما نتلقى هدية، علينا واجب الشكر، هيا قلها!».

تمتم اللص متذللا بكلمة شكرا مبهمة، واختفى.

بعد ذلك بعام، أوقف اللص. اعترف، من بين إساءات أخرى، بارتكابه سرقة المعبد، الجريمة التي يعاقب عليها بالموت. ولما ساقوه لمقابلة الراهب، سمعه مندهشا يقول:

«أنا، شيشيري، أعترف بأن هذا الرجل لم ينتهك حرمة المعبد،

أنا أعطيته قسما كبيرا من أموال الصدقات، وشكرني، ومر كل شيء على ما يرام».

حكم على السارق بخمس سنوات سجن، فقط. ولما أطلق سراحه، جاء لرؤية شيشيري في معبد الغابة النائي، وأصبح تلميذه. ومع مرور السنوات، أعجب الزوار والحجاج كثيرا بعمق رحمته. هكذا رويت حكايات الماضي.

في هذا المشهد الربيعي،
لا يوجد أفضل، ولا أسوأ.
أغصان الزهور تنمو بطبيعتها.
بعضها طويل وأخرى قصيرة.
من كلمات الزن

ألماسة الإمبراطور

هذه الحكاية هي اليوم من الماضي. عاش ذات مرة إمبراطور غني وقوي جدا، حتى أنه كان يحكم أربعة وثمانين ألفا من الملوك التابعين. كان في حريمه ثلاثة آلاف زوجة، أعطينه أربعمائة ولد والكثير من البنات، ولم يكن أحد يستطيع عد ما لديه من خيول، وفيلة، وقصور. أيام صبا هذا الإمبراطور الكبير، كان من رفاق لعبه رسامُ البلاط المكلف بزخرفة الحواجز داخل القصر وسواتر «جناح الطهارة والنداوة». بقيت ذكرى هذا الصديق عذبة في قلبه.

إلا أن هذه الإمبراطور الكبير كان يحب الذهاب للتنزه متنكرا في شوارع عاصمته، هيان كيو، التي يسمونها اليوم كيوتو. ذات صباح، وبينما كان يتجول في ساحة السوق، بين بسّطات بائعي السمك، استوقفه جسم رجل نصف مدفون تحت النفايات. انحنى عليه، فإذا به صديق صباه، الرسام توشيبو. كان يرتدي ثيابا ممزقة، تغطيها الهوام، وبدا أنه في حالة شديدة من الثمل. دس الإمبراطور الكبير، الرحيم، في جيب ثوب توشيبو، ألماسة كبيرة جدا كان يزين بها عادة أذنه اليمنى. وهكذا، فكر الإمبراطور «عندما يستعيد صديقي التعيس وعيه، سيعثر على الألماسة، ويبيعها، ويعيش بعد ذلك حياة كريمة». ومضى في طريقه، سعيدا بأنه أرضى الآلهة بهذا العمل الصالح وأنقذ صديق صباه من الشقاء.

مرت السنوات في ساعة الزمن الرملية. ولد للإمبراطور الكبير خمسون ابنا آخرين. جاء آخرهم، من زوجته الأولى، بجلد

ذهبي اللون. كان شعره أسود لامعا، مذهلا، وفي راحتي يديه علامة الدولاب ذي الألف شعاع، وعلى أخمص قدمه اليسرى حافر حصان منقوش، وعلى أخمص قدمه اليمنى قائمة فيل. بهذه العلامات، أدرك الإمبراطور أن نهايته قريبة، وأنه قد ولد الابن الذي سيخلفه. إذن، «قبل الانتقال إلى ما وراء عالم الغم»، كما تقول النصوص القديمة، والامتثال لقانون اللابقاء، عزم على الذهاب مرة أخيرة للتجول متنكرا في شوارع عاصمته. مر بساحة السوق، وكاد يصطدم بمتسول. إنه توشيبو. كان لا يزال على بؤسه:

«لا تزال على حالك هذه؟ دهش الإمبراطور الكبير.

– تعرف أني لم أحب أن أكون ماهرا في كسب المال، قال توشيبو، ومنذ أن أقصاني والدك المحترم عن البلاط، لأني رسمت مشهد صيد لم يرق لزوجته الثالثة، وأنا أجرجر حياة بائسة.

– ولكن، قال الإمبراطور، كيف حدث أنك لم تعثر على الألماسة الكبيرة التي وضعتها في جيب ثوبك؟».

تأمله توشيبو بدهشة، وأجاب:

«أرى أنك تسخر مني! أنا رجل شقي، ولن تستقيم في جيوبي أي ألماسة أبدا!».

قال ذلك، وأدار ظهره ومضى ليتسول بعيدا.

«قبل الانتقال إلى ما وراء عالم الغم»، كما تقول النصوص القديمة، والامتثال ككل البشر لقانون اللابقاء، انظر إلى الكنوز امام عينيك، والتي لا تجيد رؤيتها. هكذا تتكلم حكمة الزن.

حمار في الصين

عاش ذات مرة حمار طيّع في البواتو(٧٨)، ساقته ظروف طارئة نحو البحار. غرق المركب الذي حمله في المحيط الهادئ، وكان فيه ثلاثون حمارا، وثمانون بقرة وعجلا، وعدد من الخراف، والديكة والدجاج. وشاءت حركة التيارات أن ترميه بين الحياة والموت على الشاطئ الصيني. هنا، كان عليه أن يحيا، حسب العشب وتعرجات الأنهار. وهكذا، مرت سنة على النكبة وهو يرعى هادئا في قلب غابة تيان. لم يكن سكان الغابة الطبيعيون: القرد، والثعلب، وسيادة النمر، قد عرفوا قط حيوانا يشبهه. كان القرد أول من لاحظه من فوق شجرة:

«يشبه الحصان، قال لرفاقه، لكنه أصغر، وأغزر شعرا. أذناه طويلتان، وذيله رقيق كالسوط ينتهي بشُرّابة.

- وماذا يفعل؟

- يرعى، يرعى بلا كلل.

- هل يبيِّت نوايا عدوانية؟ سأل الثعلب، الحذر دائما.

- من جهتي، لا أخشى كثيرا آكلي العشب»، أعلن سيادة النمر، وعاد إلى الرقاد، هازا كتفيه باستخفاف.

«أعني...، قال القرد مترددا، عندما اقتربت من هذا الحيوان الغريب، تفحصته وأنا متخفٌ بين أوراق شجرة الكافور الكثيفة، فإذا به يرفع رأسه نحو السماء ويطلق صراخا صاخبا، مخيفا، مرعبا! هربت بأقصى سرعة، وها أنذا...، ختم كلامه بشكل يثير الشفقة.

- هكذا إذن! قال الثعلب، سأتسلل بين العشب، وأرى ذلك عن قرب. هل ستأتون معي سيادتكم؟، سأل مخاطبا سيادة النمر بأدب.

- هِه»، أجاب هذا الأخير بلا مبالاة وهو يلعب بمخالبه الرهيبة.

اقترب الثعلب من حضرة الحمار، الذي كان لا يزال يرعى. لما سمع ضجيجا خفيفا، رفع الحمار رأسه، وأطلق بالمصادفة نهيقا راعدا. ذعر الثعلب، الذي لم يسمع أبدا مثل هذه الفرقعة الداوية من قبل، وفر بأقصى سرعة.

وروى لسيادة النمر ما حدث معه.

«حسنا، قال السنوري، يجب أن أذهب لأرى بنفسي!». نهض بتكاسل، إذ كان قد تعشى مساء أمس ظبيا سمينا. توجه نحو المرعى، حيث كان الحمار، الذي لم يشتبه في شيء، يختار من هنا وهناك الأعشاب التي يمتع بها حنكه، متناولا بين حين وآخر شوك البعير، كتابل خفيف.

تقدم النمر بخفة ورشاقة. ولما أصبح بقربه، أحس الحمار بوجود شيء غريب بين الأجمات، فأطلق نهيقا تحذيريا. ما إن سمع النمر هذا الصخب الهائل، حتى تراجع خطوة. لكنه سرعان ما تماسك. أنا النمر، سيد هذه الأقاليم، قال مشجعا نفسه. وتقدم ثانية بخطى حذرة. حينذاك، غارت خاصرتا الحمار، ليدفع الهواء بشكل أقوى. رفع رأسه نحو السماء، واتسع منخراه، وانتصب ذيله، وارتفعت أذناه عاليا، وأطلق ثلاث مرات نهيقا متتابعا، مدويا، مدهشا، سمع على بعد كيلومترات:

«هي هان، هي هان، هي هان...!».

هذه المرة، خاف النمر فعلا. «سيلتهمني»، قال لنفسه، وتقهقر نحو مسكنه بعد أن أهين بما فيه الكفاية. ما كاد يصل إلى بيته حتى وخزته بقية كبرياء: «سأتصدى لهذا الوحش، دمدم مزمجرا. هذا ما أخذته عن أجدادي الماجدين، أموت ولا أستهين بشرفي!». عاد سيادة النمر إلى المرعى، متسلحا بشجاعة نبيلة، حيث كان حمار البواتو يرعى بهدوء. جلس السنوري بجوار بعض الأشجار، وتخفى جيدا، وتريث. ظل الحيوان الغريب يرعى. من وقت لآخر، لأنه اكتشف وجود شيء مجهول، أو كي يتسلى، أو من أجل أن يصفي حلقه، كان يطلق نحو الغيوم نهيقه المجلجل. شيئا فشيئا، اعتاد النمر على هذا الصوت المدهش، الذي لم يكن يعقبه أي تأثير. مضت ساعات النهار. كان الحمار يرعى، والنمر يترصد. ولما راحت عتمة الليل تزحف، جرؤ سيد الغابة على الاقتراب. أطلق الحمار نهيقا غاضبا، ارتعشت له حيوانات الغابة خوفا. تراجع النمر خطوة، ثم تقدم من جديد. تضايق الحمار، ولبط، لكن النمر تحاشى الرفسة بسهولة. تكررت المناورة عدة مرات. كان النمر يقترب، والحمار يرفس في الهواء. «حسنا، قال النمر لنفسه، وقد بات أكثر اطمئنانا، هذا الحيوان الغريب ليس خطرا. في صوته رعد، وهذا كل ما يجيد فعله!». وزال خوفه.

يعلمنا الزن كيف نرى حقيقة الواقع، من دون أحكام أولية، من دون تشويه لها، ومن دون أن نضفي عليها خيالاتنا، وكيف «نستقبلها»، كما هي. ذلك هو طريق اليقظة.

السلحفاة والبَلَشُونان

في ذلك الزمن، في مقاطعة هونان، جنوب شرق الصين، على أطراف بحيرة هادئة، عاش ثلاثة أصدقاء في سلام. كانوا طيرين كبيرين، لهما ريش أبيض ورمادي، ومنقار قوي، وجناحان واسعان كأنهما شراعان، وعنق ليّن طويل، من طيور البَلَشُون (مالك الحزين) الرمادية (Area cinera)، اسماهما تشينغ وتشانغ، وسيدة سلحفاة متقدمة في السن، بي - هوان. كانت هذه صعبة الطبع: حقودة، شديدة الحساسية، وشكسة، غير أنها كانت تلزم المسكن كلما رحل الطيران النبيلان لصيد السمك بعيدا. ولما يعودان، يجدانها على أمانتها دائما. كانا يحبانها، برأسها الكبير قليلا، وظهرها المخطط، وطريقة انطوائها تحت درعها وهي تهمهم....، مثلما يحب المرء مشهدا أنيسا، علامة راسية على صفحة ماء جار أو في السماوات المتغيرة.

ذات مساء، بعد أن لمت السيدة بي - هوان رأسها إلى عنقها، كعادتها، وبينما كانت منشغلة في تحضير الوجبة، فإذا بتشينغ، الجاثم على غصن شجرة يتسلى بتمليس ريشه، يلاحظ شيئا: «لدي انطباع بأن مياه بحيرتنا، «بحيرة الهدوء»، تتناقص بشكل مقلق.

- تتناقص كل صيف، همهمت بي - هوان.

- «كلما كان الماء ضحلا، سهل صيدنا»، قال تشانغ، وضحك بلا مبالاة: «كريييي..إك، كريييي..إإك!».

«هِم!، قال تشينغ، في الحقيقة، أنا قلق...». هزت السيدة

سلحفاة كتفيها العريضين، واستمر تشانغ يحك باستمتاع تجاويفَ ريشه بمنقاره الذي لا يزال زهريا.

انتشر الليل فجأة، في السماء الصينية البرتقالية. وغفا الأصدقاء الثلاثة على وهج الشمس الأخير.

كان الصيف يزحف، دون قطرة مطر. أصبح الجفاف رهيبا. انخفض مجرى الأنهار، ولم تعد حقول القطن والأرز تروى. وبان قاع البحيرة الهادئة الموحلة. ولاحت فترة من المجاعة. وذات مساء، عقد الأصدقاء الثلاثة مجلسا:

«علينا الرحيل نحو الشمال، قال تشينغ، كل المنطقة حتى كانتون هي ضحية الجفاف، يجب أن نحلق بعيدا عن هنا منذ الغد!

- هيا نبحث عن أقاليم جديدة»، قال تشانغ بطيش، وضحك: «كريييي...إك».

لكن صوتا حادا قاطعه فجأة:

«وأنا! صرخت بي - هوان باستغراب، ساخطة. كيف سأرحل؟ أنا عجوز، درعي ثقيلة، وليس لي جناحان مثلكما، أتفكران هكذا بالتخلي عني؟».

نظر البلشونان كل منهما إلى الآخر، نادمين. هذا صحيح، قالا، لا نستطيع ترك صديقتنا العجوز، لا بد أنها ستهلك هنا. ولكن، كيف نصطحبها معنا؟

«يجب أن نجد حلا»، قال تشينغ.

وذهب الثلاثة إلى النوم، بأفكار حزينة، تحت السماء الصينية البرتقالية.

في اليوم التالي، منذ الفجر، عقدوا اجتماعا. وقف تشينغ متوازنا على قائمته اليمنى، وتشانغ على قائمته اليسرى، وفاضت عينا السيدة بي - هوان بالغضب والقلق خارج قبة درعها. «لا يمكنني البقاء وحيدة هنا، وأموت عطشا!»، انفجرت حانقة.

- أوافقك الرأي يا صديقتي العجوز، ولكن كيف نحملك؟ الرحلة طويلة! تنهد تشينغ.

- ثم إنك ثقيلة يا سيدة بي - هوان، مازحها تشانغ. أتذكّرُ كيف جلستِ في الصيف الماضي على قدمي! آي...

- كانت غلطتك...

- أبدا!

- ربما كان عندي حل، قال تشينغ، يمكننا قص عصا متينة، سنمسكها، تشانغ وأنا، كل واحد من طرف، وتتشبث به بي - هوان من منتصفه بفكيها...

- أحسنت، قال تشانغ. فكرة رائعة، وبذلك لن تصدع السيدة بي - هوان رأسنا بثرثرتها!!». وضحك مسرورا: «كريييي... إك». وضحكت السلحفاة وقد استعادت هدوءها وراق مزاجها. ولم تقل كلمة.

«يا سيدة بي - هوان، أكد تشينغ، إياك وفتح فمك. سنحلق على ارتفاع عال، إن سقطتِ، ستتحطمين، رغم قوة درعك!».

واستجابت السلحفاة بأن هزت رأسها.

بعد ذلك بساعة، طار الأصدقاء الثلاثة. تعسر الإقلاع قليلا. لم يكن البلشونان معتادين على مثل هذا الحمل الغريب الزائد، غير أنهما سرعان ما حلقا بإيقاع منتظم، باسطين أجنحتهما

القوية بحركات متوافقة. كانت تمتد تحتهما أرياف مقفرة. حقول القطن تالفة، ومزارع الأرز مهجورة، وقد تناثرت هياكل عظام حيوانات هنا وهناك. نحو الظهر، وكلما توغلا باتجاه الشمال، كان المشهد يغدو أكثر خضرة، وإشراقا. وعند منتصف ما بعد الظهر، لاحظ الفلاحون في الحقول هذا الطاقم الغريب: «انظروا تلك السلحفاة، كم هي ذكية! كانوا يصرخون متعجبين، يحملها بلشونان!».

احترست بي - هوان من الرد، غير أنها وهي تعض العصا بقوة، استعذبت الإطراء. كانوا آنذاك فوق إحدى المدن، بمعابدها، وحدائقها، وباغوداتها ذات السقوف الذهبية، وكانت كلمات المديح التي تصل إلى السيدة بي - هوان تملأها زهوا كأنها بخور: «هل هي ملكة السلاحف، هل رأيتم مثل هذا الطاقم الرائع؟ يا لها من طريقة ذكية للسفر!».

تابع البلشونان طيرانهما بانتظام، غير أن التعب بدأ يخدر أجنحتهما. استعجلا كي يعثرا على نهر، أو بحيرة هادئة يحطان بقربها. وبينما كانوا فوق أحد المراعي، أشار بعض الرعاة الصغار إليهم بالأصابع. وأصاخت السيدة بي - هوان إليهم، وما أعياها الإطراء:

«انظروا إلى هذين البلشونين، قال أحد الفتيان، يحملان تلك السلحفاة الخرقاء، من المؤكد أنها ستطيّب عشاءهما، ما أذكاهما!».

- «يا لكم من رعاة حمقى، لا تفقهون شيئا!»، أرادت بي - هوان أن تصرخ. ولكن، ما كادت تفتح فمها وتترك العصا حتى

سقطت وتحطمت على الأرض، وتفجر درعها. هبط البلشونان قليلا ليحلقا سابحين، وانتزع كل منهما ريشة رمادية وريشة بيضاء من أجنحتهما حدادا على صديقتهما؛ حوما بعض الوقت فوق المسكينة، ثم تلاشيا في الأفق البعيد.

الإطراء والازدراء، يقول معلم الزن، عند الحكيم سواء. إنه أشبه بلهب الشمعة، التي تصعد مستقيمة وشفافة، وتخفق لأصغر نسمة. لا يمكن لأحد أن يعتدي علينا خلقيا دون رضانا، نحن من يفتح المحابس للغمّ. ما كان يمكن لأي شتيمة أن تجعل السلحفاة تترك العصا. المسبة، والاحتقار، واللعنة تمثل رأي ذاك الذي يتلفظ بها، هي مشكلته، وليست مشكلتنا. يحدث مع ذلك أن تكون الملامة مبررة، فنقبلها كما هي. من هو الكامل فينا؟. ويحدث أيضا أن تكون مغلوطة متحيزة، ظالمة، فنتركها في فم ذلك الذي لفظها. سلامنا، ومصيرنا هما بين أيدينا. «بين أسناننا»، يدمدم شبح السلحفاة.

الأسد والأرنب الأبيض الصغير

هذه الحكاية هي اليوم من الماضي. في ذلك الزمن، عاش في مقاطعة هيان - لونغ شيان، شمال شرق الصين، أرنب أبيض صغير، يجاور جحرُه عرينَ أسد. كان بينغ - بانغ أرنبا لطيفا، يحب أن يمرح في العشب والندى؛ وميالا دائما إلى الضحك واللهو. وكان له زوجة وأولاد. أما جاره تشونغ - تشانغ، فكان على العكس، أسدا عجوزا متأففا، ومتغطرسا، ومتوحدا...

«سبعة صغار، صرخ الأسد العجوز في ذلك الصباح مندهشا، وهاهو حمّلك الثالث لهذه السنة! في نهاية الأمر، أنت يا أرنبي المسكين عديم المسؤولية!

- ولكن، قال الأرنب الصغير مدافعا عن نفسه، نحن لا نتعدى على أرضك أبدا أيها السيد، وقد حذرت أبنائي من ذلك بقسوة!

- لا شك، لكن وجودك بحد ذاته إزعاج، غير معقول!

- ولكن...

- أنا، أنا جميل ونبيل، هامتي متوجة بعفرة مهيبة، وشعري متلألئ تحت الشمس؛ نظراتي آمرة، وزئيري يبعث على الاحترام...بينما أنت حيوان مضحك وغير مفيد!».

تصرف بينغ - بانغ بحكمة، فلم يجب، وبقي ينطنط تحت أشعة الشمس. ولكن، بينما كان يقوم بثلاث قفزات جميلة ومرحة أمام العرين، غضب الأسد غضبا رهيبا:

«كفى! دوّى صوته. لن أتحمل المزيد من حركاتك الغريبة! أمهلك ثماني وأربعين ساعة كي تجد لك مأوى آخر. إذا لم ترحل

عائلتك المقمّلة خلال يومين، سأسحقكم تحت قوائمي، جميعا، حتى آخر واحد فيكم.

- ولكن، أراد بينغ - بانغ أن يبرر مرتعبا، كيف تريدنا أيها السيد أن نكتشف في هذه المهلة القصيرة الأرض الرملية، المعرضة جيدا للشمس، والمناسبة لحفر جحر جديد؟ ارحمنا، أيها السيد، صغاري لم ينبت فروهم بعد، حتى أنهم لم يفتحوا عيونهم. أتوسل إليك أيها السيد، امنحنا مهلة...

- يومان، لن أزيدهما ثانية واحدة!»، زأر تشونغ - تشانغ.

رجع الأرنب الأبيض الصغير إلى بيته مفكرا. ظل يفكر حتى المساء. أخيرا، استعاد مزاجه المحبب.

«حليت مشكلتنا، قال لزوجته، لا تقلقي من شيء بعد الآن».

استلقى مطمئنا، ونام الجميع بسلام في الجحر. في اليوم التالي، عندما بزغت أشعة الفجر الزهرية، توجه بينغ - بانغ إلى عرين جاره الرهيب:

«أيها العظيم والقوي تشونغ - تشانغ، قال وهو ينحني جدا، بحثت البارحة عن مكان أقيم فيه جحرا جديدا، حسب أوامرك، أيها السيد النبيل...».

وافق الأسد بدمدمة.

« ...حين تعرفت على حيوان هناك، في الجانب الآخر من الجبل، قال لي: «أنا الأقوى، والأقدر، أنا ملك هذا الوادي وكل الأراضي المجاورة! وزأر بشكل مخيف. جمد شكله المفزع الدم في عروقي، ما زلت أرتجف منه حتى الآن!

- أيها الأحمق ذو العجيزة البيضاء، يا بئس الأرانب! لماذا لم

تشرح لهذا الحيوان المتعجرف أنني أنا الأقوى والأقدر، وملك كل الأراضي المجاورة؟

- لكنني قلت له ذلك، أيها السيد! لقد ضحك، وأجابني إنه سيطرحك أرضا بضربة قائمة واحدة، وإنه سيسحقك مثل بعوضة تافهة.

- أروووووو...غه! انفجر الأسد العجوز غاضبا. يزعم هذا المتبجح، هذا البهلول أنه سيسحقني بضربة قائمة واحدة؟ قدني إليه، سألتهمه بلقمة واحدة...

- يعني...، تردد بينغ - بانغ.

- أنت خائف! قال تشونغ - تشانغ هازئا. هيا إليه حالا! صاح بقوة.

- حسنا، أيها السيد»، أجاب الأرنب الصغير متذللا.

سار بوجه متضع، نادم، ومذعن، حتى أن أي واحد آخر غير الأسد لكان يرتاب منه. كان المسير طويلا، لأن بينغ - بانغ ظل ينعطف كثيرا هنا وهناك، بينما أخذ رفيقه يلهث غاضبا بلا جدوى. «كيف! كان يخاطب نفسه، يجرؤ على أن يتحداني أنا، تشونغ - تشانغ، أي وقاحة؟ سأجعل هذا المغرور، البجاح، يطلب الرحمة، سأرميه عظاما للضباع، جيفة للنسور!!».

كان الأسد العجوز يزداد هيجانا كلما طال المسير. ولما حل الليل أخيرا، توقف بينغ - بانغ:

«يا سيدي الأسد، قال وهو ينحني احتراما، هذا الذي يؤكد إنه سيسحقك بضربة قائمة واحدة هو هنا، في قاع البئر».

هجم تشونغ - تشانغ فورا على فوهة البئر، وجال بوجهه

الحانق في القاع، فرأى حيوانا مرعبا، تظهر بين شفتيه أنياب رهيبة. انتاب تشونغ - تشانغ شيء يشبه القشعريرة. لكنه تماسك. تكدر وجهه غيظا، وجاءته من الأسفل تكشيرة مخيفة، وكلما اختنق غضبا، شاكسه الآخر بغضب خانق مثله. كان ينفجر غيظا، فيزبد الحيوان الآخر، واختلط زئيرهما في صراخ واحد فظيع:

«أرووووووو...غه!»

«أروووووو...غه!»

ما كاد الصدى ينطفئ حتى سمع تشونغ - تشانغ ضحكة صغيرة مرحة. كان الأرنب الصغير الأبيض يقف على بضع خطوات، منتصبا على قائمتيه الخلفيتين، مجاهرا بسخريته منه. عندئذ، أحس الأسد العجوز فجأة بتعب من كثرة السير، وثقل السنوات، ومرارة الوحدة. وأدرك أنه قد ثار على صورته هو، انعكاسها على الماء. وخجل. وقرر ألا يعود أبدا إلى عرينه، وأن يضع حدا لحياته في ذلك الجانب من الجبل.

وعاد بينغ - بانغ، وهو يملس شاربيه، إلى بيته بسلام.

«ما هو الطريق؟ سأل التلميذ.

- الإدراك الحاد لبداهة الأشياء»، قال معلم الزن.

حكاية ريونين

كانت ريونين، ويعني هذا الاسم «الفَهْم المُبين»، فتاة مزيَّنة بكل المحاسن: بيضاء الوجه كاللؤلؤ، شعرها كثيف تجدله في كعكة ثقيلة على رقبتها الرقيقة، وعيناها عميقتان مثل بحيرة. كانت أنيقة ورشيقة، وتامة الخلقة. أصلها من أسرة نبيلة من محاربي الساموراي، وقد نبغت في الموسيقى، وامتلكت موهبة الرسم والشعر أيضا. استرعت ريونين انتباه الإمبراطورة من بين جميع سيدات القصر، وضمتها إلى منتداها الخاص. كان عمرها آنذاك سبع عشرة سنة، وتعود القصة إلى العام ١٧٠٠ تقريبا، خلال حقبة إدو[٧٩]، في ظل الإدارة العسكرية لـ توغوغاوا يوشيمون، الذي أمنت إدارته الحكيمة لليابان فترة طويلة من الرخاء والسلام.

لم يكف ريونين أنها رائعة الحسن، بل جمعت أيضا فضائل العقل والنفس معا، وأحبها الجميع، من أنبل السيدات حتى أصغر خادمة. وفوجئ الجميع وذهلوا عندما عبرت عن رغبتها في الانعزال في دير كي تدرس الزن. ودافعت ريونين عن دعواها. وجرى تفاوض حول تسوية. كان عليها أولا أن تتزوج، وتنجب ثلاثة أطفال، بينهم ولد، لتأمين استمرارية الذرية. بعد ذلك، إن كانت لا تزال بها رغبة، هي حرة في حلق شعرها، والذهاب للتسول واستجداء الطعام على الطرقات، وقصعة الأرز في يدها، أو أن ترحل لتخبىء جمالها في معبد زن. كانت ريونين تحترم أسرتها وأجدادها، فرضخت. وعادت الحياة تسير هادئة. اعتقدت

الأسرة، وقد اطمأنت، أن ابنتها نسيت تماما تلك الفكرة الغريبة. ثم إن ريونين تزوجت في عامها التاسع عشر من سيد كبير، وسط احتفالات باذخة. وأنجبت له بنتين، بدا أنهما لن تقلا حسنا عن أمهما، وصبيا قويا وهادئا، الصغير أوشيبا.

ولكن، ذات صباح، أعلنت ريونين، أمام دهشة أسرتها، أن عليها المغادرة كي تذعن لمصيرها. تمنت الانعزال في معبد زن، وأن تخدم فيه كراهبة. لم يستطع والداها، ولا زوجها، ولا أطفالها ثنيها عن عزمها. ورحلت. في عامها السادس والعشرين، كانت ريونين في أوج حسنها، وزادتها الأمومة روعة. ولما مثلت في معبد إدو، وطلبت من معلم الزن تتسوغيو قبولها تلميذة، قال لها بعد أن نظر إليها مليا:

«ريونين، أنت جميلة جدا، شعرك كثيف ورائع، عيناك بحيرتان غامقتان مترعتان سحرا، ستغدين في جماعتنا مثارا للفوضى والاضطراب. لا يمكنني قبولك».

حينذاك، حلقت ريونين شعرها، وتخلصت من كل حليها، ونزعت حتى الإسوارة التي وضعتها على كاحلها، وكانت تحملها منذ الطفولة، وارتدت ثوب المتسولات، ومثلت أمام معلم الزن هاكوو، في معبد مجهول بعيد عن العاصمة. تأملها المعلم طويلا وقال لها:

«ريونين، أرى جيدا رأسك الحليق، وثيابك البائسة، أتبين من كلامك حكمة فؤادك، ويحدثني قلبي بفضائلك، غير أنك رائعة الجمال، لؤلؤ خديك يسلب تلامذتي الشبان عقولهم، بل قد يبلبل من هم أكبر سنا في تأملهم. لا أستطيع قبولك».

سارت ريونين حينذاك في الطرقات، متأملة في قلبها. وذات صباح، عند مرورها قرب بسطة بائع فطائر مقلية، أمسكت فجأة المقلاة الحارقة وكوت بها خدها الأيمن، ضاغطة عليها حتى أحدثت فيه جرحا قبيحا. وفي بضع ثوان، زال حسنها الفتان إلى الأبد.

اقطعوا ذاك الشعير أمام النافذة!
كي أرى
الجبال البعيدة.
بوزون (١٧١٥ - ١٧٨٣)[٨٠].

يعلمنا الزن أننا من هذا العالم الدنيوي، ولكن علمنا ألا ندع أنفسنا نسجن فيه، وأنه تجب إزالة العقبات. ذلك أننا نسكن بيتا مفتوحا، كلما هبت أرقّ «نسمة» قرعت أبوابه واحدا بعد آخر إلى ما لانهاية، حتى «الجبال البعيدة».

الكركي الرمادية

هذه الحكاية هي اليوم من الماضي. كان لزوج وزوجة من الفلاحين ولد وحيد اسمه كوتارو. كان صبيا مستقيما وطيبا، يزرع حقل الأسرة، ويقطع الخشب لبيعه في المدينة. كان مقتصدا ومجدا، ومعينا لوالديه العجوزين. كان إنسانا منصفا، وترعاه الآلهة...

ذات صباح، وبينما هو يعمل في الغابة، سمع صوتا ضعيفا بدا أنه آت من قمة شجرة صنوبر: «كرو، أوو، أووأوو...».

أصغى بانتباه...صمّت. ولكن، بعد أن علّق فأسه لحظة، ظن أنه سمع هذه المناداة مرة أخرى: «كرو، أوو، أووأووأوو...».

- هل هناك أحد، سأل، رافعا عينيه نحو الأغصان العالية.

- «ساعدني يا سيدي، من فضلك، أنا جريحة»، انطلق صوت رخيم.

تسلق كوراتو الشجرة فورا، وظل يصعد حتى أعلى الأغصان. ولما وصل إلى القمة، اكتشف أنثى كركي رمادية شبه مختفية بين الأوراق، وقد تدلى جناحها الجريح على الجانب بشكل حزين. كانت مخلوقا خياليا: كبيرة، مفعما شكلها بالنبل رغم جرحها، وقائمتيها الطويلتين الرفيعتين؛ وأضفت خصلة بهيجة من الريش عند منبت ذيلها مزيدا من الروعة على مظهرها. كان عنقها رقيقا، وعلى رقبتها تلك البقعة ذات الحمرة البهية، الجذابة، التي تدل على نوعها... وريشها رماديا تتدرج فيه كل ألوان الأردواز متناغمة مع لون الرماد، وقد أضافت إليها أشعة شمس الفجر

الفتية لون الفضة. وقع كوراتو أسير جمالها. وأخذ يسعفها. لم يستطع تحريكها، فأطعمها وسقاها. وبقي أسابيع يعتني بها. كانا يتحادثان. وروت له حكايتها.

«منذ عصور وأزمان، قالت له، كنت أميرة في بلاط الإمبراطور الكبير مهايانا، الذي حكم ألف ملك. كان لهذا العاهل الكبير ثلاثة أبناء: مهانادا البكر، ومهافيدا الثاني بعده، والأصغر: مهاساتفا. كان علي أن أتزوج البكر، غير أني أحببت الأصغر، العطوف والرقيق. هربت معه. ألقوا القبض علينا، وحكم علي بالموت. منذئذ، وأنا مقيدة إلى دولاب الحياة، منساقة في دورة الانبعاث».

«يا كوراتو، قالت له ذات مساء، إنك تذكرني بمهاساتفا، أصغر أبناء الإمبراطور مهايانا، أنت رقيق وطيب مثله».

في اليوم التالي، تسلق كوراتو شجرة الصنوبر وصعد إلى القمة، فلم يجد أنثى الكركي. لقد شفيت، وطارت. حينذاك، أطبق الحزن والكآبة على الفتى. عمل بصمت، ولم يعد يأكل. خاف عليه أبواه كثيرا. وراحت أمه، التي كانت امرأة جلودة وعملية، تنوح وتندب:

«ماذا سيحل بنا لو مات ابننا؟ استطعت بالكاد أن أخبئ اثنتي عشرة قطعة نحاسية صغيرة في الإناء. وقريبا لن يبقى عندنا شيء...».

وراحت تلوي يديها يأسا.

بعد ذلك بأيام، ذات صباح، قرع أحدهم باب كوخ القش. كان كوراتو يعمل في الغابة آنذاك. فتحت أمه الباب. كانت فتاة رائعة الجمال تقف هناك، صرة ملابسها بين يديها.

«أبحث عن شخص اسمه كوراتو»، قالت.

- ماذا تريدين منه؟ سألت الأم بحذر.

ثم أضافت متذمرة:

«ليس هنا، ولن يعود إلا مع حلول الليل!

- لا بأس، سأنتظره»، قالت الفتاة بصوت عذب، وجلست أمام البيت، بعد أن وضعت الصرة بجانبها.

بقيت هنا طيلة النهار. كانت ترد بابتسامة متواضعة كلما رمقها الوالدان عند مرورهما بنظرة متفحصة. أخيرا، عاد كوراتو. كان متعبا وحزينا، كحاله منذ رحيل الكركي الرمادية، التي أسرت قلبه.

«نهارك سعيد، قالت الفتاة الرائعة الجمال.

- من أنت؟ سأل كوراتو.

- عندي أشياء مهمة أود إخبارك بها...»، وابتسمت.

- «ادخلي»، قال كوراتو بصوت متعب.

ولكن، ما إن نظر في عيني الفتاة الغامضة حتى رأى فيهما رموشا رمادية غزيرة، فخفق قلبه.

«يا سيد كوراتو، قالت الزائرة الحسناء، اسمي «أوزاكو المتواضعة». أجيد الخياطة، والحياكة، والطبخ، وإشعال الموقد، لا أتضايق من أي عمل، أرغب في الزواج منك».

نظر كوراتو إلى هذه الفتاة الجميلة جدا، مندهشا.

«ستنظفين الكوخ أيضا، وتكنسين العتبة، وتعتنين بالوالد المريض؟ سألت الأم.

- سأكون كنة مطيعة، وسأخدمك يا أمي، قالت أوزاكو

المتواضعة وقد أخفضت عينيها وانحنت باحترام.

- تزوجْها يا كوراتو»، قررت الأم.

وهذا ما تم.

بعد أن تزوج من أوزاكو المتواضعة، عرف جمالها، الممزوج برقة القلب، والتواضع، والشجاعة، والنشاط في العمل. كانت تؤدي كل واجباتها دون تذمر من شيء. وكانت الأم راضية. وعاد الفرح شيئا فشيئا إلى قلب الشاب.

مضت الأيام. وتسنى للأم وقت كي تفكر، بعد أن لم يبق أمامها تقريبا أي عمل تقوم به. وذات يوم، قالت لكنتها:

«يا أوزاكو المتواضعة، نظرت بالمصادفة في صرة ملابسك، التي خبأتِها أسفل الخزانة، واكتشفت قطعة قماش عجيبة. هل أنت من حاكها؟

- نعم يا أمي.

- حسنا يا ابنتي، لماذا لا تباشرين هذا العمل، وتمتهنين الحياكة، فتصنعين لنا قماشا، يمكننا بيعه في المدينة!.

- يا أمي، قالت أوزاكو المتواضعة بخجل، نحن فقراء، ولكن لا ينقصنا شيء، وهذا العمل محفوف بالمخاطر...».

لم تمتثل الأم. كان قلبها مفعما بالرغبات غير المشبعة. وألحت على ابنها، إلى أن قال كوراتو لزوجته ذات مساء: «لماذا لا تريدين يا حبيبتي الحنونة حياكة هذا القماش الرائع الذي رأته أمي في صرة ملابسك؟ يمكننا أن نجني منه ذهبا، تستطيع أمي أن تخبئه في الصندوق، بدلا من القطع النحاسية الصغيرة. وسنصبح أخيرا أغنياء!».

قبلت أوزاكو المتواضعة. لكنها حذرت زوجها:

«تتطلب حياكة هذا النسيج أن أحبس نفسي شهرا في سقيفة الغلال، وألايعكر صفوي أحد هناك».

انقضت أربعة أسابيع طويلة. ولما ظهرت أوزاكو المتواضعة من جديد، بدت شاحبة اللون، نحيلة، ومنهكة، كأنها على وشك الموت، ولكن كان في يديها قماش مذهل، نسيج ألوانه زاهية، دافئ وخفيف، ناعم الملمس كالحرير، نسيج لم ير مثله أبدا. ذهب كوراتو لبيعه في المدينة المجاورة. أعطاه سيد كبير عشرة آلاف قطعة ذهبية ثمنا له. عاد إلى البيت، وقد جن من الفرح. اشترى لوالديه بيتا جميلا. وأصبح من الأشراف ويتاجر بالخشب. لم تشارك أوزاكو المتواضعة الأسرة ابتهاجها. لم تشف من عملها المضني إلا بصعوبة، وتلونت نظراتها بالحزن، بعد أن كانت ملآى بالثقة فيما مضى. وشيئا فشيئا، استعادت صحة عابرة. لم يعرها أحد من الأسرة كثيرا من الاهتمام. وكان كيراتو نفسه منشغلا كثيرا بأشياء مهمة وجديدة عليه القيام بها...

عاشت الأم في بحبوحة، كأنه تحتم عليها أن تكون لها هي. وراحت تبذخ، فاشترت أثوابا غالية الثمن، بل ابتاعت هودجا أيضا. أرادت منافسة أجمل سيدات المدينة. ذات يوم، لاحظت أن كومة الذهب في الصندوق، التي بقيت تأخذ منها بلا حساب، قد بدأت تتناقص. وبعد وقت قصير، أصبح حجمها ينذر بالخطر. حينذاك، تذكرت كنتها:

«يا ابنتي، قالت فجأة، ستعودين إلى العمل، وتنتجين لنا قماشا يستطيع ابني بيعه في العاصمة، وربما في البلاط...».

كانت تصبو بشراهة إلى كومة ذهب يكدسونها في الصندوق.

«يا أمي، تدخل كوراتو برخاوة، تعلمين أن هذا النسج الخاص منهك جدا، وأن زوجتي مرضت وقتا طويلا في المرة السابقة عقب...

– ترّهات! قاطعته الأم. شبان اليوم يشتكون من أتفه الأشياء».

وبقيت تطلب النسيج كل يوم. لم تدع ابنها يرتاح لحظة واحدة، فتلح تارة، وتارة تأمر، وتداهن، وتشكو بمرارة:

«تأبى أن تلبي هذه الرغبة الأخيرة لأمك العجوز التي طالما ضحت من أجلك!».

استسلم كوراتو أخيرا.

«لبي هذا الطلب لأمي»، قال لأوزاكو المتواضعة.

رمته زوجته الحنون بنظرة طويلة، امتزج فيها اليأس والإذعان:

«هذه المرة، قالت فقط، سأحتاج للبقاء ثلاثة أشهر في سقيفة الغلال.

– لا تستغليها في الكسل، يا كنتي!»، قالت الأم، بينما غابت أوزاكو المتواضعة في السقيفة.

احتوت الأم نفاد صبرها شهرا. ولكن، ثارت فيها الظنون. ماذا تفعل كنتها، أتحلم بدل أن تعمل؟ لم تظهر كثيرا من الحماس! كانت الأم، وهي ترنو إلى القطع الذهبية اللامعة بهدوء في ظلال الصندوق، تحس بقلبها يغلي طمعا. وذات صباح، في الشهر الثاني، لم تستطع أن تقاوم أكثر، ورغم وعدها، صعدت إلى السقيفة. وعندما وصلت أمام غرفة كنتها، وضعت أذنها على إطار الباب. لم تسمع أي صوت، وميزت بالكاد خفقات حركة

النسج الناعمة والمنتظمة. ولما تآكلها الفضول، فتحت الأم الباب قليلا، قليلا جدا، بما يكفي فقط لإلقاء نظرة. جعلها ما رأته تطلق صرخة خوف! كانت كركي رمادية تنتزع أمام نول حياكةٍ كبير ريشَ جناحيها لتصنع النسيج العجيب، وقد تلطخت بالدم، الذي شح في رأسها المسكين. وقفت الأم مسمرة على العتبة. استجمعت الكركي آخر قواها وطارت من النافذة.

وجدها كوراتو مساء عند طرف الغابة. كان جناحاها المشوهان يعيقانها عن الذهاب أبعد من ذلك. وماتت الكركي الرمادية الجميلة غير بعيد عن شجرة الصنوبر حيث سبق أن وجدها كوراتو، بينما كانت الشمس المنحنية نحو الغروب تداعب ألوان ريشها الأردوازية، المضمخة بالفضة.

عاطفة الطامعين الجافة، الجشعين الذين لا يشبعون، الرغبة المحمومة في المقامات، وحب السلطة، والعطش إلى الثروات: «السباق والعطش، العطش والسباق معا»، يقول الشاعر، الحاجة إلى الامتلاك، التملك أكثر وأكثر دائما، بلا نهاية، دون توقف ولا عنان... ذاك هو شقاء الإنسان، وسجنه.

يفتح الزن أعيننا، ويعلمنا عدم التعلق، والرشاقة، وحكمة الفكاهة، ويمكننا من نسيان الذات، ومن الرحمة، ويمنحنا الطمأنينة الداخلية، والحرية.

«تصرف، كمن يلهو، في العالم، يا رهجافا، مضطرما من الخارج، موردا متوهجا من الداخل؛ لا تكن متعلقا؛ امض كمن يلهو في العالم، يا رهجافا... «تقول البهاغاوات غيتا (الأناشيد القدسية).

شذرات من الزن

ما يسميه معلمو الزن، حسب التعبير الطقسي، «الوسائل البارعة»: الرمي بالقوس، والتصوير، وفن الشاي، وتنسيق الأزهار، وحدائق الحجارة، والهايكو، والحكايات... هي أساليب تتيح بلوغ اليقظة. وتفقد قيمتها عندما ينظر إليها على أنها غايات.

«عندما يشير المعلم إلى القمر، ينظر الأحمق إلى الإصبع».

(من كلام الزن)

دون تفكير بأي شيء، كنت جالسا
في مكتب وظيفتي.
كان ذهني ينساب، غير مضطرب،
مثل ينبوع صاف.
فجأة، الرعد والبرق:
أبواب ذهني تتفتح على مداها.
ببساطة.
كيف عرف تشاو - بين، موظف الحكومة، اليقظة.

كنت أُنشد بهاء الله،
انتشى قلبي فرحا بوجوده
[...]
مخلِّصي نظر إلي
أنا الصغيرة جدا

(نشيد العذراء[٨١])

إله البحر

في اليابان القديمة، كان الراهب المرتحل من مقاطعة إلى أخرى، ومن قرية إلى قرية، يبث الحكايات الآتية من الهند الخيالية أو من الصين البعيدة، والمؤثرة في النفوس تأثيرا حسنا. كان الرجل الورع يقيم في القاعة ضعيفة النور، حيث تتقد الجمرات في الموقد؛ وحوله الفلاحون على شكل حلقة، فيبدأ بالعبارة الطقسية المألوفة:

هاكم ما سمعته:

كان لرجل يذهب للعمل في الحقول زوجة وأطفال. كان يرتدي ثياب الفلاحين ويحمل على كتفه معزقة. في الطريق، أوقفته امرأة جميلة جدا:

«تزوجني، قالت له. أريد ذلك، ولا شيء يردعني عنه». بعد قليل من التردد، قبل الرجل، وقد فتنته بحسنها. قالت له المرأة الجميلة:

«أريد أن أدلك على بيتي، وأريك والدي».

تبعها الرجل. قادته إلى الشاطىء: «خُضْ هذا المحيط!»، قالت.

تراجع الرجل، فزعا. لكنها قالت له:

«سيمسك كل منا ذراع الآخر، ليس لديك شيء تخشاه».

غاصا بين الأمواج، وعبرا في مسير طويل، حتى بلغا قصرا رائعا. قدمت الحسناء الرجل لوالدها، الذي كان إله البحر.

«هاهو الزوج الذي وجدته».

- لتكن صهري منذ الآن، قبل الإله. وهكذا تم الأمر.

إلا أن الرجل تابع حياته بشكل عادي ظاهريا. كان يعيش مع زوجة وأطفال. ولكن، عندما خرج صباحا، ومعزقته على كتفه، اتجه نحو المحيط بدلا من الذهاب للعمل في الحقول، ونزل في قصر البحر الرائع. هكذا سارت الأمور، لبعض الوقت. ذات يوم، انتابت الزوجة شكوك. تبعت زوجها. رأته يخوض ماء المحيط، فخاضت وراءه بدورها، وجازفت في الدخول إلى القصر تحت الأمواج. فاجأها الحراس، وكادوا يرمونها طعاما للأسماك الجائعة، حين تدخل الزوج:

«إنها زوجتي على اليابسة، قال، أم أولادي. سأعيدها إلى البيت».

ولما وصلا، شرح لزوجته:

«تزوجت من ابنة إله البحر. ابننا البكر هو في سن تؤهله للحلول مكاني في الحقول. أما أنا، فعلي أن أتركك، لم أعد أنتمي بعد اليوم إلى هذا العالم».

«كل منا، خلص الراهب المسافر، هو في الحقيقة إله في قصر البحر. هذا ما تريد أن تقوله هذه الحكاية. لن تسمعوا المزيد منها اليوم».

الفرسان الثلاثة

عاش ذات مرة ثلاثة فرسان: كان الأول، المغطى بالذهب، يلمع كأنه الشمس. وكان الثاني، المرتدي ثيابا بيضاء وفضية، برّاقا. أما الثالث، ذو اللون البرونزي، فكان رماديا من رأسه حتى قدميه. وكان الثلاثة يترددون إلى الغابة الكثيفة القريبة من أوزاكا. في ليالي الشتاء الباردة، كان الحطابون الفقراء يسمعون مرورهم. أحيانا، كانوا يلمحون سيوفهم الكبيرة تتلألأ تحت ضوء القمر، فيعود كل منهم إلى بيته، خائفا.

ذات ليلة من العام الجديد، كان جوهي يرتجف من البرد في كوخه. قرر أن ينتزع بعض اللاطات، كي يشعل نارا. ما كاد ينتزع ثلاثة ألواح، حتى انبثق أمامه عجوز قصير، خارجا من مخبئه:

«من أنت، وماذا تفعل تحت سقفي؟ سأل جوهي.

- أنا إله الفقراء، وقد لجأت إلى بيتك، كي أمضي الشتاء بهدوء»، قال الدخيل.

دعاه جوهي، الطيب القلب، ليتدفأ ويشاركه العشاء البسيط. ولما أنهى الإله قصعته، داعب بطنه، معبرا عن شبعه، وقال:

«والآن، سأتناول بطيب خاطر قدحا من الساكي[٨٢]!

- ليس لدي ساكي، أقر جوهي.

- عجبا! لا توجد قطرة كحول للاحتفال بالعام الجديد!

- قدمت لك ما عندي، قال جوهي، ولست آسفا، أضاف، لأننا تحادثنا بمودة، وهذا أجمل عام جديد عشته منذ زمن طويل!

- أنت شاب طيب، قال إله الفقراء، لكنك حقا بائس جدا،

حتى معي، لهذا سأترك كوخك. قبل ذلك، سأبوح لك بسر، يجعلك تصبح غنيا، إذا أردتَ.

– ماذا علي أن أفعل؟ سأل جوهي وعيناه تلتمعان.

– عند مرور الفرسان في المرة القادمة، امسك حصانا من عنانه، وأوقفه، مهما كلف الأمر!».

بهذه الكلمات، تلاشى إله الفقراء في الهواء بسرعة، حتى أن جوهي ظن لبرهة أنه خرج لتوه من حلم.

في الليلة التالية، كمن جوهي، المرتعد ولكن المصمم، في وسط الدرب الذي يسلكه الفرسان الثلاثة. عند منتصف الليل، أقبلوا كالريح. الأول يرتدي جلبابا ذهبيا، وقد تغطى وجهه بقناع مخيف جعل جوهي يتراجع خطوة؛ والثاني جلبابه أبيض وفضي، وقد بان ملوحا بسيفه المهدِّد، ومضى. وكان الأخير رمادي الجلباب، وبالكاد يُرى ليلا. انقض عليه جوهي، وأمسك العنان، فشب الحصان، وأفلت. وفي لحظات، غاب الفرسان الثلاثة بعيدا. عاد جوهي يائسا إلى كوخه، حيث وجد إله الفقراء:

«جوهي، يا جوهي...! خاطبه هازا رأسه، لا تريد الخروج من شقائك إذن! اسمع، أود منحك فرصة أخيرة. في منتصف الليل، اكمن على درب الفرسان الثلاثة. حاول إيقاف أحدهم. إذا لم تتمكن، ستظل بائسا طوال حياتك. لا تلزمك سوى الشجاعة!. مصيرك بين يديك»، أصر.

وتلاشى الإله، تاركا في مكانه دخانا خفيفا.

في اليوم التالي، كان الطقس أقل برودة. أصبحت الأرض موحلة. خاف جوهي، الذي كرر الحركات اللازمة مائة مرة، من

الانزلاق. عند منتصف الليل، كمن بثبات في وسط الدرب، وانتظر، مستنفرا كل حواسه. فجأة، من بعيد... سمع عدو الأحصنة الأصم. كان الأول قد وصل، جسيما، مذهَّبا، مفزعا، ولمّاعا تحت ضوء القمر. فتح جوهي ذراعيه، لكن الفارس قفز فوق العقبة بوثبة عجيبة، ومضى. كان الثاني هناك، فانقض جوهي على العنان، غير أنه انزلق من بين يديه مثل برق فضي. صمم جوهي حينذاك أن يموت ولا يترك الفارس الأخير يفلت منه. أمسك عنان الحصان الرمادي، وتشبث به بأظافره وأسنانه، باذلا كل قواه كي لا يفلت. رفع الفارس سيفه الكبير، فأغمض الشقي عينيه، غير أنه لم يترك العنان. سحبه الحصان، وجرجره، وهزه كأنه كيس أرز، لكنه ظل صامدا. وشيئا فشيئا، تباطأ عدو الحصان الرمادي. فتح جوهي عينيه، كان الفارس قد اختفى، تاركا في مكانه خُرْجا طافحا بالقطع البرونزية.

لم يملك جوهي في حياته أبدا قطعا ذهبية أو فضية. ولم يكن قط غنيا. ولكنه حصل على ما يكفي من القطع البرونزية كي يعيش بشكل لائق. تزوج من فتاة متواضعة وعاقلة. وأنجبا كثيرا من الأطفال، وعاشا سعيدين، طويلا جدا.

يرمز الأبطال، بامتياز، إلى الشجاعة. لكن المجرمين يتصفون بها أحيانا. إنها لمزية غريبة، تنسجم مع الشر كما مع الخير، مع ذلك، ليست أجمل الفضائل دونها سوى هراء... الفضائل الأخرى، دونها، لا شيء.

«لولا الشجاعة، يقول معلم الـ سسهين(٨٣)، لكان الزن مجرد حلم زن».

يخلصنا الزن من طرق تفكيرنا العادية. وينقل لنا، خارج المعاني الكلية (التصورات) والكلمات، حقيقة تسمو مباشرة في قلب الإنسان.

كان ذات مرة... راهبان في طريقهما إلى الالتحاق بديرهما قرب إدو (٨٤)، أخَّرهما عن المسير فلاحان، زوج وزوجة، طالبين منهما مباركة ابنهما الوليد، ومنزلهما، وقطيعهما. شربا عندهما، بدافع الكياسة، والتعاطف، كأسا أو كأسين من الساكي. والآن، أصبحا عند طرف الغابة، والليل بدأ يظلم.

لكن أحد الراهبين أعمى، وكان صاحبه يقوده:

«لا تخش شيئا يا دغيرو!، قال الراهب المبصر، علينا عبور الغابة، حيث تعيش، حسبما تقول الأساطير، وحوش، وساحرات، غير أني سأفتح عيني جيدا، وسأحميك من كل المخاطر».

وأضاف بصوت جعله قويا:

«امسك ذراعي، ولنتقدم بجرأة!».

ما إن بلغ الراهبان قلب الغابة، حتى خرج من الدغل فجأة وحش قبيح. إنه ياماما، الساحرة العجوز الدرداء، سيدة الغابات المخيفة. كانت ضخمة، ذات منخرين واسعين، وأنف مسيخ، وعينين محتقنتين بالدم، تبدو فيهما زوابع من نار؛ ولسانها الأحمر القرمزي يتدلى بطول قامتها، وشعرها الأشيب المتسخ يتموج مع الريح؛ وذراعاها الطويلتان جدا ينتهيان بمخالب مقرفة، وقدماها المغطيتان بالشعر تضربان الأرض بغيظ شديد. راح

الراهب الدليل يرتعد بكل عظام جسمه.

«ما بك يا أخي، لم أعد أسمع صوتك، وأُحسّك تترنح عليّ، كلمني، أرجوك!».

لم يعد الراهب البصير، وقد شله الرعب، قادرا على إطلاق أي صوت. كانت ياماميا المخيفة لا تزال تتقدم، ومدت نحوهما مخالبها الحادة؛ وأخذ احمرار عينيها يلتمع، وفمها يتلوى بضحكات رهيبة.

«أشعر أنك لست على ما يرام، قال الأعمى، لا أدري لماذا، ولكن دعني أسندك وأقودك بدوري، استند علي!». وبخطوة واثقة، جذب الأعمى رفيقه نحو ياماميا التي لم يكن يراها.

رأى الوحش مندهشا الراهبين يسيران باتجاهه مباشرة. لم يظهرا أي خوف، وبدا أنهما غير مباليين بمنظره المرعب. مدت ياماميا عندئذ لسانها الأحمر الضخم واللزج خارج جوف فمها حتى وصل إلى قدميها الأشعرين، وصعقتهما بنظرتها الملتهبة، ثم بسطت مخالبها المهدِّدة ولمتها. كل ذلك دون جدوى. ظل الراهبان يتقدمان وقد أمسك الأعمى صاحبه بيد قوية.

تلاشت ياماميا مقهورة في الجو، واختفت.

هذه الحكاية تجعلنا نفكر: أي من الاثنين كان العاجز الحقيقي؟

تنين المطر

في بلاد الصين، تؤدي التنانين وظائف مهمة جدا. «التنين الأحمر»، مثلا، الذي يسمونه أيضا «تنين النار»...، إنْ فتح عينيه، انبلج الفجر، وإذا أغلقهما، انبسط الليل. يا لها من مسؤولية! يوقظ « تنين الرعد والبرق» العواصفَ. أي مهنة شاقة! «تنين السحب» يجمعها كأنها خراف، إنه راعي ركام الغيوم. لا شيء أكثر لعبا ومكرا من سحابة! تختبئ التنانين، وتتحول إلى أسد، أو قرش، أو زرافة، تتنسّل، وتتبدد.... ياله من عمل! ولكن ربما كانت التنانين التي تهتم بمهاجمة الشمس، والقمر، وعضٌّ مؤخرتيهما، لمنعهما من إضاعة وقتهما عبثا، هي الأقل جاذبية، غير أنها مع ذلك تؤدي عملا لا بد منه! ماذا نقول أخيرا عن «تنين المطر»؟ ينبغي أن يسكب ماء الجرة السحرية على الجبال، والغابات، وحقول الأرز، لا كثيرا، ولا قليلا، وذاك عمل مرهق، ويتطلب انتباها دؤوبا. لنتصور أنه يروي، من باب اللهو، صحراء غوبي (الآسيوية)!

منذئذ، ندرك أن التنانين تحتاج، من وقت إلى آخر، إلى الترفيه والاحتفال! إحدى أفضل المناسبات هي عيد ميلاد إمبراطور التنانين. في القصر السماوي، تقام قصوف عملاقة، ومآكل لذيذة لا تكلف شيئا، ومعها ضحكٌ وأغان. في تلك السنة، كانت حفلات القصف مستمرة منذ ثلاثة أيام. وتناثرت الأجساد المسترخية والمتهالكة، كيفما اتفق، في الصالات والأروقة. كان «تنين المطر» يشخر، بعد أن ثمل. ولكن، كما يعرف الجميع، اليوم

بالنسبة إلى التنين هو سنة كاملة بالنسبة إلى البشر. وعلى الأرض، في السهل الصيني الكبير، أضحى الوضع مأساويا. لا قطرة مطر منذ ثلاث سنوات!. قدم وفد من السكان متضرعا إلى «التنين الذهبي» الصغير، مبعوث تنانين السماء إلى أهل الأرض.

«أنقذنا يا سيدنا التنين! ما من قطرة ماء نزلت، امتلأ السهل بعظام الحيوانات، سنموت كلنا جوعا!

- سأحاول»، قال «التنين الذهبي» وقد أخذته الشفقة، وطار نحو قصر السماء.

لما وصل إلى بلاط الإمبراطور، رأى مشهدا يرثى له. لم تكن هناك سوى أجسام ممددة، هنا وهناك على البسط، في الممرات. وجد سيد المطر، فهزه بقوة. لكنه لم يسمع سوى همهمة مبهمة:

«دعني أنـ نـ نـ نام!

- لكن الناس على الأرض يموتون يا سيدي. وقعت مجاعة رهيبة، يحتاجون إلى الماء فورا!

- د...دع...ني...أنام!».

صادف «التنين الذهبي» سيد الرعد في الرواق، وقد صحا تقريبا. شرح له الوضع. رغم ترنحه قليلا، ضم «تنين الرعد والبرق» جهوده إلى جهود «التنين الذهبي» الصغير. هزّا سيد المطر مرة أخرى:

«استيقظ، يلزم ماء للمزروعات، وحقول الأرز، وسكان السهل الصيني الكبير المساكين.

- هذا يـ... يـ... وم الع.يد! تمتم «تنين المطر». لن أفعل شيئا، إلا إذا أعطاني الـ.. إم.بر..اطور أمرا عا...جلا!»، أكد بعناد السكّير.

توسلا إليه، دون جدوى.

بدا الوضع بلا حل. حينذاك، خاطر «التنين الذهبي» الصغير بالذهاب لإزعاج الإمبراطور. ولكن، قبل أن يصبح على مقربة من باب دار جلالته، اعترض طريقه تنينان كبيران قويان مسلحان برماح ذات رؤوس حادة ونصال، ومنعاه من التقدم: «لا يمكن لأحد الدخول إلى هنا، وإلا كان عقابه الموت!».

ابتعد التنين الصغير، لاويا مخالبه يأسا. كان يفكر في البشر التعساء، الذين يموتون على الأرض، والواثقين بشكل خاص أنه قد تعلم أن يحب. ما العمل لإنقاذهم؟ صمم على القيام بأخطر فعل يمكن أن يقترفه تنين: أن يستخدم زورا الكلام المقدس للإمبراطور. اقترب من سيد المطر وزعق في أذنيه فجأة:

«يأمرك جلالته بأن تمطر على السهل الصيني الكبير».

رغم أنه شبه غاف، أمسك «تنين المطر» الجرة السحرية في الحال، وصب الماء على السهل الصيني الكبير، وعاد إلى غفوته.

نزل «التنين الذهبي» إلى الأرض، فرأى سعيدا أن الاخضرار قد دب في الحقول. ونجا أصدقاؤه البشر. بعد ذلك بثمانية أيام، استدعي «التنين الذهبي» إلى القصر السماوي، ومثل في حضرة الإمبراطور:

«كيف تتجرأ على استغلال اسمي المقدس، وتعطي أمرا بدلا مني! يعاقَب على هذه الجريمة بالموت وأستطيع الحكم عليك بالحرق حيا، الآن؟!

- أعرف ذلك يا سيدي، قال التنين الصغير، وقد أخفض عينيه.

- لكن الجواب «الحق» يقتضي أحيانا مخالفة القواعد، والتمرد»، قال الإمبراطور. بدا مستغرقا في تأمله، وأضاف: «الرحمة طريق خلاص».

«أيها المعلم، العبرة في هذه الحكاية بالغة الوضوح!

- وما هي هذه العبرة، يا توشيبو؟ سأل معلم الزن.

- الرحمة التي برهن عليها التنين الذهبي إزاء البشر هي أجمل الفضائل.

- هل أنت متأكد من ذلك يا توشيبو؟ أعتقد أن العبرة هي شيء آخر غير هذا...».

وأضاف، بعد وقت من الصمت:

«إن صادفتَ البوذا، اقتل البوذا!».

كان التلاميذ يلتفون في حلقة حول المعلم، وكان الليل يهبط. في تلك الليلة، تأمل أكثر من واحد طويلا في الكلمات المعمّاة.

ثوب الغراب الأسود

هناك «غـراب الـزرع البُـرّجي»، ذو الـريش الأسـود، والـرقـبـة الرمـادية، والـعـينين الـرمـاديتين اللؤلؤيتين، اليـقظ، والصـغـيـر، والصيّاح بلا توقف: «تيا... تجاكا - تجاكا - جا - كا، تجا -...»؛ و «الغُداف»، ذو الريش الأسود المتقزّح، والمنقار المائل إلى الرمادي، النحيل والرقيق، مع ريش أعلى قائمتيه، الغريب، وذاك الصياح الذي يطلقـه خـفـيـة: «كـاآ...آه...أه...»؛ و «الزاغ الأسـود»، الذي يغطيه السواد، حتى منقاره الكبير؛ ويرمز نعيقه الخشن والمديد، «كـروآ، كـروآ...كـرا-أأأ...»، إلى كل جنس الغـرابيـات؛ و«الغـراب الكبير» أخيرا، مع طوله البالغ اثنين وستين سنتيمترا وسطيا من رأس منقـاره حتى طرف ذيله، وريشه القـزحي الألوان، وصيـاحه الوجيـز: «كـرو...ررروك!». أيا كـانت صـفـاته، وفـرادته في النوع، فالغراب غير محبوب. وقد زعم أنه يحمل المصائب، وأنه ملعون، وأنه على صلة بالأبالسة! ريشه الأسود هو علامة النقمة عليه. وهذا حكم جائر! ذلك أن لونه ناتج عن ظرف طارئ، مـعـاكس. ولكن، اسمعوا ما تقوله في ذلك حكاية من اليابان القديمة....

منذ عصور وأزمان، أيام كانت الطيور تتكلم، كان ريش الغراب رماديا. ولما كان أنيقا، وحريصا على مظهره، فقد ذهب ذات يوم للقاء البوم، الذي يعمل في الصباغة، كما يعرف الجميع:

«عـزيـزي البـوم، ريشي باهت، أتمنى استـبـدال به شـيء أبهج، أكثر ألقا!.

- ليس عندي وقت أضـيـعـه! هـمـهم البـوم. قل لي رغـبـتك

بالضبط، لدي زبائن آخرون يريدون الاصطباغ قبل هذا المساء!
- حسنا، رد الغراب مفكرا، أحب كثيرا ريش النقّار الأخضر: ظهره أخضر جميل وزاهٍ، وألوان بطنه متدرجة من الرمادي الفاتح إلى الأخضر اللوزي، وقلنسوته حمراء، طبعا، وشارباه سوداوان.... آه، نسيت، بقعة حمراء في وسط الشاربين تماما...
- كل هذا معقد جدا، غمغم البوم، أوو-هو...أوو-هو...».
راح يعمل، فمزج في قدوره الكبيرة التي تغلي مختلفَ الأصباغ. لكن المهمة صعبة، وبدأ الظلام يخيم.
«طلبت منك لونا ألطف من هذا للأسفل، أخضرَ باهتا!. احتج الغراب. والقلنسوة، أريدها بلون أحمر أرجواني، أجدك تعطيني لونا أحمر بنفسجيا أرجوانيا! ليس هذا ما أريد!».
هز البوم ريش رأسه، ولم يجب. وأخذ يمزج الألوان بهياج، حتى تعرق.
«لن تتوصل إلى ما أريده فعلا! أكد الغراب خائبا. الأسهل أن نحاول شيئا آخر: أفضل لي أن أفكر بارتداء ريش الرفراف(٨٥): فهو أزرق - أخضر لامع، معدني على الظهر، قليل من اللون البني والأصهب على البطن، والعنق أبيض، وبعدها سيكون كل شيء ممتازا!
- أنت تشوشني! احتد البوم، لم أعد أعرف إن كنت تريد الأخضر أم الأزرق أم البني، الأحمر أم الأبيض، إن كنت تريد أن تشبه النقار الأخضر أم الرفراف!».
وفي ثورة غضب، قلب البوم قدوره، ولوَّن الغراب...بالأسود.

الغراب، كنت أعتقد أني لا أحبه
ومع ذلك...هذا الصباح
على الثلج!

ماتسوو باشو (١٦٤٤ - ١٦٩٤)

جمانة الريح

هذه الحكاية هي اليوم من الماضي. منذ قرون وقرون، كان لملك دولةٍ صغيرة ولد وحيد. كان ها - هسين أميرا وسيما قوي البنية، شجاعا، خدوما، حلو الطبع، غير أنه مبتلى بعيب وخيم. كان بطيئا، لا مباليا، ومترددا. دائما هو الأخير في السباقات، والمنافسات، والمباريات، واحتفالات البلاط. وكلما نظم كبير أمناء القصر، والد الفتاة التي يحبها، حفلة الغلال الراقصة كل عام، كان يدع منافسيه يتقدمونه. وكانت لين - فانغ الرائعة، ذات الشعر الأسود، والرقبة البيضاء، والعينين اللامعتين، ترقص كل ليلة مع آخرين غيره.

مع مرور الأيام، اغتم ها - هسين كثيرا لهذه الحال، فذهب يسأل إله الجبل أن يساعده. امتطى جوادا، وسافر طويلا. اجتاز كثيرا من المخاطر، وعبر ثمانية وتسعين جبلا. أخيرا، وصل أمام الجبل التاسع والتسعين. كانت سفوحه شديدة الوعورة، حتى أنه نزل عن حصانه، وصعد ممسكا به من لجامه. ولما بلغ القمة، صادف امرأة عجوزا تغزل تحت صنوبرة ضخمة.

«عمّ تبحث أيها الغريب؟ سألته.

- جئت من مكان بعيد جدا يا جدتي المحترمة، قال بأدبه المعتاد، لأستشير إله الجبل وألتمس مساعدته!

- اذهب حتى الشلال، ناد باسم يوتا ثلاث مرات، فيظهر لك إله الجبل!».

امتثل ها - هسين لما قالت، ووقف أمام الشلال، وصرخ ثلاث

مرات: يوتا، يوتا، يوتا!!!

«ماذا تريد مني»، دوى صوت قوي، وتجلى أمامه عجوز عملاق؛ كان رأسه يلامس السحب، وتتدلى لحيته البيضاء حتى قاع الوادي. ارتجف ها - هسين رعبا لهذا المشهد، غير أنه تكلم بشجاعة:

«أيها النبيل يوتا، أنا مبتلى بعيب وخيم: بطيء، ومتردد، ولا مبال. وكل عام، في حفل الغلال الراقص، يتقدمني منافسوي. وتراقص محبوبتي الرائعة الجمال لين - فانغ، ذات الشعر الأسود، والرقبة البيضاء، والعينين اللامعتين... آخرين غيري.

- أيها الأمير ها - هسين، قال إله الجبل، أرى أنك مخلص القلب، سألبي طلبك، ولكن احرص على حسن استعمال ما سأمنحك».

ما إن أنهى كلامه، حتى أخرج من ثوبه حبة صغيرة، ليست أكبر من حبة أرز:

هذه «جمانة الريح»، يكفي أن تضعها في فمك حتى تعدو مثل أسرع نسيم!».

وتلاشى إله الجبل في الجو كالدخان.

عاد ها - هسين إلى مملكته مفعما بالأمل. كان يقبض بحرص شديد على «جمانة الريح» داخل جريب صغير أخفاه على صدره. أخيرا، جاء الخريف، ومعه احتفال الغلال الكبير الراقص. استعد الأمير. وضع «جمانة الريح» في فمه منذ التهيؤ للحفل، وانطلق نحو المنصة، حيث كانت تقف لين - فانغ الرائعة إلى جوار أبيها. لكنه ركض سريعا جدا، سريعا جدا حتى أنه... تجاوزهما، ولم

يتمكن من الوقوف إلا في وسط حقل، بعيدا عن الاحتفال. حينذاك، رجع أدراجه، غير أن لين - فانغ كانت قد بدأت تراقص منافسا له. وتزوجت منه في الربيع التالي. غرق ها - هسين في الغم، وجافته كل مبررات العيش. ذات يوم، بعد أن يئس، التجأ إلى راهب زن ليقيم معه، وكان يسكن على بعد بضع ليات[٨٦] من القصر:

«أيها الراهب، قال، لم أستطع الاقتراب من محبوبتي، لأني متراخ كثيرا، بطيء أكثر مما ينبغي، وأصل الأخير دائما. قمت برحلة خطرة، وتسلقت تسعة وتسعين جبلا، وقابلت الإله يوتا. أعطاني «جمانة الريح»، التي جعلتني أسرع من النسيم، ولم أقدر على الاقتراب أكثر من لين - فانغ، محبوبتي، ذات العينين السوداوين، والرقبة البيضاء، والعينين اللامعتين...».

«أيها الأمير النبيل، قال الراهب، يعلمنا الزن ألا نأكل أكثر مما ينبغي ولا أقل مما ينبغي، وألا نشرب أكثر من اللازم ولا أقل من اللازم، وألا ننام أكثر مما هو ضروري ولا أقل مما هو ضروري. من المناسب، في كل ثانية من حيواتنا، أن نعطي الجواب الحق، وما سوى ذلك، كله وهمٌ». اعتلى ها - هسين العرش، وحكم طويلا، طويلا جدا. كان أكثر الملوك الذين عرفتهم المملكة حكمة طيلة آلاف السنين. ويتحدث الناس عنه حتى اليوم، في الأساطير القديمة، وفي قلب الصين المقدس.

امرأة الجليد

عاش ذات مرة... شاب وحيد. أقام في كوخ بسيط، بلا أصدقاء، ولا أقارب ولا أهل. ذات صباح، كان يرقب الهوابط التي تشكلت على حافة السطح، قطرات بلورية تلمع تحت الشمس. وصرخ:

«كم أحب أن ترسل لي السماء زوجة بياضها قزحي الألوان، ولها جمال الجليد الرائع!».

في ذلك المساء، كان يتهيأ للنوم عدما قُرِع الباب:

«من هناك؟

- أنا الفتاة التي طلبتها من السماء هذا الصباح. جئت أمنحك نفسي، زوجة».

فتح الشاب الباب فورا، بارتباك. كانت فتاة رائعة الجمال تقف على العتبة، يداها شفافتان، وخداها لؤلؤيان يلتمعان تحت ضوء القمر.

«ادخلي»، قال، مفتونا.

لما صارت الفتاة في المطبخ، سألها:

«هل أنت مصممة على الزواج مني؟ أنا فقير، أؤجر خدماتي لمن يتكرم بتشغيلي. لست عريسا مناسبا، وأنت جميلة جدا!».

أجابت إنها تعرف كل ذلك، وإنها يمكن أن تبقى في بيته إن تفضل بقبولها.

تزوجا، وعاشا سنة كاملة في وفاق تام. وذات يوم، دعاهما جارهما، وكان رجلا خدوما ومتأدبا، إلى عيد ميلاد؛ وعرض

عليهما بهذه المناسبة استخدام الحمام الساخن، الذي بناه منذ وقت قصير، وكان فخورا به. رفضت المرأة، متذرعة بأنها تخاف من الماء الحار بشكل خاص. لكن الزوج أصر:

«لا يمكننا إهانة مضيفنا، وهو رجل لطيف جدا!».

وقبلت.

في مساء الحمام، رأى أنها لم تعد، فقلق. وذهب لإحضارها. ولكن بدلا منها، وجد شريطتين زرقاوين ومشطا من درع السلحفاة على سطح الماء.

لقد ذابت امرأة الجليد.

هكذا رووا.

تقدم لنا بوذية الزن غالبا حكايات ملغزة. ولكن، في «امرأة الجليد»، يبدو «مغزى الحكاية الرمزية» جليا. يرسل شاب، جهلا أو حماقة، زوجته إلى موت مؤكد. وربما أمكننا أن نلخصها كما يلي: «يجب أن نفكر قبل أن نتصرف». هذه القراءة ليست غير صحيحة. لكن نظرة الزن مختلفة، وأعمق.

ما يكون، هو كائن. لما رفض الزوج حقيقة الواقع، عندما أنكر الوقائع (أن زوجته امرأة من جليد)، امتنع رمزيا عن بلوغ طريق الخلاص، «طريق الشعاب الثمانية النبيل»: الفهم الحق، والفكر الحق، والكلام الحق، والفعل الحق، والعيش الحق، والجهد الحق، والانتباه الحق، والتركيز الحق.

كل لحظة من لحظات حياتنا، إذا كانت حقة، هي قطرة من الخلود.

طبيب وثعلب وحية

منذ أزمان وأزمان، حتى أننا لا نتذكرها...عاش في دولة جمبديفيدا طبيب شاب، أوتي المواهب كلها، وقد أرغمه حب كئيب على الاغتراب. وهام لزمن طويل في طرقات الهند، وانتهى به المطاف في مقاطعة مجهولة، صمم على الإقامة فيها. كان هذا الطبيب رجلا طيبا، يمارس «اللامحدودات الأربعة» (٨٧)، وكان عطفه على الكائنات الحية كلها ملتزما بقواعد الفضائل العشر.

ذات صباح من أيام الصيف، كان يسير على طريق ريفية عندما هبت عاصفة مخيفة، تبعتها أمطار طوفانية. وغمرت الطرقَ، والحقول، والغابات مياهُ نهرٍ هائجة فاضت عن مجراه. وظن الطبيب الشاب أن ساعته الأخيرة قد دنت. في تلك اللحظة، مر بقربه لوح لا بد أنه باب معبد انتزع من مداره؛ تمسك به بقوة، وقفز عليه، ونجا وقتيا. كان يتأمل الكارثة، مترجحا على قطعة بابه الخشبي، وسط الأمواج الموحلة، عندما لمح ثعلبا أصهب الشعر غامقا، وقد انطفأت عينه، وتبلل ذيله وانثنى، وعلى وشك أن يغرق على بعد أمتار منه. انحنى قدر ما يستطيع خارج اللوح المنقذ، ومد يده نحو الثعلب. كانت المحاولة محفوفة بالمخاطر، وكاد الطبيب يفقد توازنه. لكنه أفلح في سحب الثعلب ووضعه بجانبه.

لما أبلّ الثعلب من انفعاله واضطرابه، انتفض، وتجفف، وراح يستعيد طعم الحياة:

«يا سيدي، قال، أنا ثعلب ذو شأن، لي وكر مشهور في الغابة،

لعلك تميزه هنا تحتنا. عند انحسار الماء، سأدعوك إلى مسكني».

وبعد أن عبر كفاية عن نفسه، تمدد تحت الشمس بكامل طوله، وأخذ يضرب الهواء بذيله ذي القنزعة، ورتب وضعته بحيث شغل ثلثي المكان المتاح على اللوح. لم يقل الطبيب شيئا، وظل يرقب المياه القذرة والموحلة، التي حملت خليطا غريبا من البقايا والفضلات: قطعا خشبية، وجثث حيوانات...كان المشهد يدعو للرثاء. وقد اعتصر قلب الشاب ألما له. فجأة، لمح حية أصَلَة، كانت تحاول يائسة البقاء على سطح الماء. مد يده عفويا لينقذها، غير أن الثعلب رفع خطمه المدبب عاليا وصاح متعجبا:

«هل فقدت صوابك يا سيدي العزيز؟ دع هذا الزاحف المرعب يغرق. لا يوجد مكان كاف على اللوح يتسع لنا نحن الثلاثة!». أصر الطبيب، وتمكن من سحب الحية الفتية خارج الماء. ما إن أصبحت في أمان، حتى زحفت باستمتاع إلى ركبتي حاميها، الذي وضع يده بمودة على جلدها الدافئ والمرقش، الناعم كالحرير. أدارت الأصلة لسانها الرشيق خارج فمها، ومدت رأسها المثلثي نحو الطبيب، مستجدية المداعبة:

«انتبه...قال الثعلب متبرما، إذا بقيت تتلوى هكذا، سينتهي الأمر بهذا الحيوان بأن يقلبنا!

- لا تقلق، ستنام بوداعة على ركبتي».

هز الثعلب كتفيه، وعاد إلى تمدده تحت الشمس. انقضت الساعات بطيئة. وحوالى الظهر، أخذت المياه بالانخفاض. ولما حل المساء، انحسرت تماما. أما الثعلب، الذي استعاد مزاجه اللطيف، فشكر الطبيب طويلا. ووجدت الأصلة الفتية، التي أمضت قيلولة

ممتعة جدا، صعوبة كبيرة في ترك صديقها الجديد. لكن الرفقة الغريبة انفصمت أخيرا، وعاد كلٌّ إلى مشاغله، إلى حياته.

مرت ثلاث سنوات في ساعة الزمن الرملية. وحقق الطبيب الشاب أكثر مما كان يأمل. وأمّنت له حمايةُ سيدٍ كبير، كان قد عالج ساقه المنتفخة بشكل شنيع، الكثيرَ من الزبائن. بقي طيبا وعطوفا، ومهتما بالناس الفقراء، الذين غالبا ما اعتنى بهم بلا مقابل. باختصار، كان الجميع يكنون له الاحترام، الجميع باستثناء أحد زملائه.... كان الدكتور موروزوكي قد أمل لزمن طويل أن يحظى بإنعامات السيد الكبير، وأخفق. تآكله الحسد. وذات صباح، ذهب ليلتقي بحاكم المدينة:

«يا صاحب السعادة، قال، يجب أن أبلغكم عن أحد زملائي، الذي وصل إلى هذه المدينة منذ ثلاث سنوات، يوم الطوفان الرهيب. كان مسافرا مع ثعلب وأصلة! والأهم من ذلك أن الثلاثة كانوا جاثمين على باب معبد! في ذلك الحين، راح يخدع أحدَ سادتنا الكبار، لا ندري كيف. ينم كل ذلك عن شعوذة. نتمنى لو يعلم أميرنا الصالح، الذي أراه أحيانا...، وابتسم ابتسامة متواضعة، أننا إنما نحمي هنا مشعوذا حقيقيا...». كان الحاكم رجلا حذرا. أوقف الطبيب الشاب، وألقاه في سرداب، ونسيه. لم يثر نبأ هذا التوقيف ضجة كبيرة، بل إن السيد الكبير نفسه، الذي كانت صحته ممتازة جدا آنذاك، كانت لديه مشاغل كثيرة. إلا أن حكاية متاعب الطبيب الشاب انتشرت بعد أسابيع في الغابة. كان الثعلب أول من علم. وأخبر الأصلة بالأمر فورا. كانت هذه الأخيرة قد كبرت جدا. أصبح طولها في ذلك الحين ثلاثة

أمتار واثنين وتسعين سنتمترا ووزنها ثلاثة وخمسين كيلو غراما.
صرخت بشدة:

«أيها السيد الثعلب، سننقذه! ولو كلفني ذلك أن أخنق بين حلقاتي نصف سكان هذه المدينة.

- سنبتكر حيلة، قال الثعلب. السيدة هيرملين على وشك أن تضع مولودا، ويحتاج الأمر باستمرار إلى طبيب بارع، تمتم. باختصار، تابع بصوت مرتفع، إذا كنت جاهزة، نذهب حالا إلى المدينة».

بسطت الأصلة حلقاتها بسرعة البرق، وهرعت على عجل، حين قال لها الثعلب لاهثا:

«مهلا، أيتها الصديقة العزيزة، لن نستطيع فعل شيء قبل الليل!».

بعد أن تخفيا بين الأجمات، انتظر الثعلب والأصلة حتى تغرق الشوارع والبيوت في الظلمة. كانا قد كمنا بجوار منزل الحاكم. ولما حل الليل، تسللت الأصلة إلى الداخل وانزلقت إلى غرفة نومه، وعضته بقسوة في قدمه اليسرى، وهربت بهدوء. في الصباح، كانت قدم الحاكم قد تضخمت جدا، وآلمته ألما شديدا. وأرسل في طلب أفضل أطباء المدينة، ولم يفلح أحد منهم في التخفيف من ألمه.

«يا صاحب السعادة، قال أكبرهم سنا، داؤك غريب، ربما علينا استشارة المنجمين...

- لا حيلة بيدنا أمام هذا المرض المجهول...»، تأوه آخر. وخيم صمت على المجلس. حينذاك، ارتفع صوت مختنق، جاء من طبيب

شبه مختبئ في عباءة كبيرة، قائلا:

«سمعت أن الزميل الشاب الذي قدم إلى مدينتنا يوم الطوفان يعرف أدوية لهذا المرض الشائع في بلده».

ذهبوا لاستدعاء الطبيب من السجن.

أطلعه صديقاه سرا على سبب المرض، فعالج الحاكم. أعاد إليه هذا الأخير اعتباره وثرواته. وبحثوا عن الطبيب ذي العباءة ليشكروه، غير أن الثعلب والأصلة كانا قد عادا منذ وقت طويل إلى الغابة.

في أديرة الزن، كل مساء بعد جلسة اللوتس، بمرافقة طبل مشغول من خشب الموكوغيو، وصَنْج كيسو، يرتلون «اللا محدودات الأربعة». ويعبرون عن أولاها هكذا:

أيا كان عدد الكائنات الحية،
أعاهد نفسي أن أنقذها جميعا
ذاك هو نَذْر الرحمة.

شذرات من الزن

في غـابة هذه الحكايات الصـينيـة، واليـابانيـة، والهندية، مع حكايات الحمار هذه، والكركي الرمادي، والثعلب، والقـرد، وقنديل البحر، والفلاحين، والتنانين، والملوك، والآلهة، والرهبان، والفتيات الجميلات الشقيات، والحيـة، والقبّرة، والخلد، والسلحفاة، والغـراب، أو السـاموراي النبيل، هـاهي فسحـة صمت. هـاهي استراحة لاستعادة الأنفاس، للتوقف، لاستنشاق السعادة، ولو أن السعادة هي للطفولة. هل تتذكرون تلك اللحظات التي لا تنتهي، التي كنا نظنها ضائعة، نخالها مضجرة؟ صدى طفولتنا المخنوق، والمسألة الأخرى المتشابكة، نداء المُطلَق، نداء اللامتناهي. ذلك أن وراء كل شكل، وأفضل من السلطة، والثروة، وأكثر إثارة للدهشة من السماء الزرقاء، وشواطئ الجزر السعيدة الشقراء، وأروع نشوة حتى من الغراميات البشرية في توهجها، هنالك نشيد الصمت، شدْو الخواء. «هذا الخواء اللمّاع كسماء الصيف، الذي يلتهم الأشياء، وفي لدنه لا يعود ما يبقى سوى رتل من الظلال» [٨٨]، مثلما كتبت مارغريت يورسنار[٨٩]، إنه الخواء، الصمت الذي يستيقظ فيه اللحن الإلهي، هذا المطلق، الذي لا يعبره شيء ولا يفوقه شيء، الذي تقودنا حكايات الزن إليه وتعيدنا له.

شويي - يون المحظية

كعكة شعرها الأسود في أعلى رأسها، تغطيه وشائح كأجنحة طائر الفينيق، خداها خزف صيني، قدماها منمنمتان، وقدها رقيق حتى ليُخشى أن تطير إن مرت بها أصغر نسمة. شويي - يون، كان عمرها خمس عشرة سنة. في الجناح الأزرق، كانت صحبتها هي الأشهى بين المحظيات. كانت ساعة برفقتها اللذيذة تساوي ثلاث عشرة قطعة ذهبية. وكانت أمها ترقب ذلك بحرص شديد. ولكن، صحيح كذلك أنها كانت تغني مثل عندليب العنادل [٩٠]، وتلامسك أصابعها كأنها قطرات الندى، وتنظر إليك بعينيها السوداوين كأنهما تداعبانك. كانوا يأتون من بعيد إلى مدينة يو - هانغ الصغيرة ليستمتعوا بمرآها. كانت تقدم الشاي، وتعزف على القيثارة، بل وتلعب الشطرنج مع من تواضعت نقودهم. كان التجار الأغنياء وحدهم، أو موظف كبير عابر، يلحقون بها إلى الشقق الخاصة. من بين المعجبين بها، كان هناك شاب فقير وسيم، فنان، ينظر إليها من بعيد بحرارة. وذات يوم، استطاع جمع ما يكفي من المال ليقدم هدية متواضعة إلى شويي - يون. تقدم بين آخرين طالبا يدها. تلاقت نظراتهما لحظة وجيزة، واجتاحت قلبيهما عذوبة غريبة. كانت في يدي هوو قصيدة. أهداها للفتاة. تناولتها بلا كلام. في اليوم التالي، كان هناك، ولكن لم يعد لديه ما يكفي من المال لتقديم هدية جديدة، فلم يقدر على الاقتراب. لكن الرابّة (زوجة أبيها) القاسية الرهيبة كانت تراقب حالهما. باع هوو لوحة، وتمكن أخيرا من شراء هدية

محترمة. وسمح له بتناول الشاي برفقة محبوبته. تكلما قليلا، ولم يحيدا عن الطقس، فالكل يراقب. ولكن لما انحنت بابتسامة لتبلغه نهاية اللقاء، دست شويي - يون بطاقة في يد الشاب. قرأها هوو بقلب خافق حالما انزوى بنفسه:

كتب فيها:

خريف المطر والريح.
كآبة.
فجأة ظهر صديقي
وشفي قلبي

وإلى الأسفل بسطور قليلة، فك رموز قصيدة ثانية، أثرت فيه حتى سالت دموعه:

نوتيّو الزوارق يصرخون للمسافرين
بعضُهم يعّبر، أنا، لا،
بعضُهم يعبر...ليس أنا

قيل كل شيء. الحب، والأمل، والوعد. بعد ذلك بيومين، أفلح في إيصال رده إلى شوييي - يون:

الشتاء قارس،
والطرق مكسوة بالثلج
إن كنت صديقتي الحنون
يدا بيد نكمل المشوار

عندما حضر إلى الجناح الأزرق، اقتربت منه خادمة:
«اتبعني»، قالت له.

عبرا جمّع الناس؛ كانت شويي - يون بانتظاره، وقد مكثت في

مكانها المعتاد. «أمنح حديثا خاصا لهذا الشاب، شرحتْ، لقاء هدية سرية قدمها لي».

انحنى الرجال المحيطون بها. ورجت هوو أن يجلس بقربها:

«تريد أن تمضي الليلة معي، سألته، كي نتحادث، ونتعارف بشكل أفضل؟

- للأسف! أجاب هوو، نفدت أموالي، لست سوى متعلم فقير. وصال جسدك هو بالنسبة إلي حلم رائع، متعذر نواله».

وصمتا، جالسين بحزن أحدهما بجوار الآخر. بعد قليل، تدخلت الرابّة. وأومأت إلى شويي - يون؛ أرسل في طلبها تاجر غني. وافترق الشابان. وصمم هوو، المضنى، على عدم العودة إلى الجناح الأزرق. وأرسل إلى محبوبته هذه القصيدة الأخيرة:

مهما طال الزمن ونحن نأكل الأرز

عن هذا العالم

سنفترق.

في قبرنا أخيرا

سننام معا [٩١].

بعد ذلك بأسبوع، غادر هوو المدينة. ومضت الشهور في ساعة الزمن الرملية.

ذات مساء من أيام الشتاء، غمر الثلج المتساقط بغزارة كل شيء بالصمت. في الجناح الأزرق، كان الزبائن نادرين. وحضر زائر غريب، مرتديا ثيابا لا عهد للمقاطعة بها. كان في يده اليمنى خاتم مزدان بثعبان تنين عيناه صفراوان. الرجل غني، وقد نال بسهولة محادثة مع درة المحظيات: شويي - يون. راحت تعزف له

على القيثارة لحنا كئيبا، واكبته بصوتها الشجي.

كان الزائر ينظر إليها بطيبة. فجأة، رفع إصبعا، ووضعه على جبين الفتاة، مرددا هذه الكلمات مرتين:

شيء مؤسف، شيء مؤسف

وانصرف، على نحو غامض، مثلما جاء. في المساء، عندما كانت مستلقية، رأت شويي - يون في مرآتها بقعة سوداء، ظهرت في المكان الذي لمسه الغريب على جبينها. غسلتها بشدة، لكن البقعة لم تمّح. في الأيام التالية، امتدت إلى كل وجهها. بعد أسابيع، وقد أضحى وجهها أسود ومتشققا كأنه وجه شيطان، فقدت شويي - يون جمالها. وأعرض الزبائن عن الدفع ليروها، أو ليسمعوها وهي تغني. أصبحت شيئا مرعبا. غطتها الرابة بدلو خشبي كبير، وأهانتها، وضربتها. عبثا. حينذاك، كرسوا الشقية لأوضع الأعمال: فتاة مطبخ، وغسالة أوان، كبش محرقة لأدنى الخادمات، وكان عليها أن تنام بعيدا، على كومة قاذورات.

علم هوو ذات صباح من فم مسافر بالحكاية المذهلة لمحظية من مدينة يو - هانغ الصغيرة. استفسر عن اسمها. ولما عرف الضياع الذي آلت إليه صديقته الحنون، باع كل ما يملك، حتى الحقل الذي ورثه. وحضر إلى الجناح الأزرق، وعرض على الرابة أن يشتري ابنتها. قبلت، وسعدت كثيرا بالتخلص من مشوَّهة. ومضيا بصمت. خبأت شويي - يون وجهها الأسود بذيل معطفها.

عاشا سعيدين. لكن شويي - يون لم تتأسّ بعرض منظر وجهها الشيطاني على محبوبها: «يا زوجي، وسيدي، وسمائي! كانت تردد، كم أحب أن أريك وجها لائقا أكثر!».

طمأنها هوو دائما، غير أنه عانى أحيانا من لزوم حجب زوجته عن الأعين، وكان كل واحد يتمتم أن مثل هذا القبح هو عقاب من الآلهة على إساءة ما فظيعة. كان يذهب كل شهر إلى المدينة الكبيرة لبيع اللوحات التي رسمها. ذات يوم، صادف رجلا غريبا، يحمل في سبابة يده اليمنى خاتما نقش عليه ثعبان تنين عيناه صفراوان.

«لماذا ترسم نساء بلا وجوه؟»، سأل الغريب بطيبة.

وروى هوو، بقلب مثقل قليلا، حكايته.

«أنا طبيب، قال الرجل، هل تسمح لي أن أجرب على زوجتك وصفة أحتفظ بسرها؟».

قبل هوو، شرط ألا تكشف شويي - يون عن وجهها الأسود. أتى الرجل إلى المنزل. أحضروا له طستا مليئا بالماء، وخط بسبابته في الماء إشارات غامضة.

«لتغتسل زوجتك بهذا الماء، قال، وستستعيد وجهها كما كان».

نفّذت شويي - يون. وأصبحت رائعة الجمال حتى بدا نور الشمس شاحبا أمام لؤلؤ خديها. تقدم الزوج والزوجة إلى الرجل المحسن بفيض من الشكر. واختفى، ثم علما أنه من الخالدين [٩٢].

أيا كان ستار المظاهر، ينطلق الزن مباشرة إلى قلب الجوهر.

وسادة شرقية
وسادة غربية

هذه الحكاية هي اليوم من الماضي. في مقاطعة شن - سي، قرب مدينة شوان، عاش في ذلك الزمن رجل يغذي في قلبه كراهية لا تلين ضد المولى: يانغ - يو - وي. كانت الأسباب غامضة وبعيدة، ولكن كان لا بد من قتل يانغ. لكن هذا تزوج منذ أمد قصير من امرأة لطيفة وجميلة، صادقة القلب.

ذات صباح، تسلل الرجل إلى بيت يانغ - يو - وي، وكان غائبا. لذلك، قبض على والد الزوجة، قيده، ووضع سكينا على عنقه، وقال:

أيتها الزوجة الأولى، دليني أين هو زوجك، وإلا قطعت عنق العجوز الآن!

- سأدلك، قالت الزوجة النبيلة، التي احتفظت برباطة جأشها. دع والدي يذهب. «عد هذه الليلة، وادخل غرفة الزوجين. سأكون نائمة على الوسادة الغربية، وزوجي على الوسادة الشرقية. يمكنك قتله بسهولة».

ترك العدو العجوزَ، وانصرف.

خلال النهار، تفرغت باو - تاي لمشاغلها المعتادة. ربما كانت أكثر رصانة وتفكيرا بقليل، ولكن هادئة كالعادة. التقت بالفتاة تشو، الخليلة التي كانت تحبها بمودة. أمسكت كل منهما كمَّي الأخرى، وتكلمتا هامستين وقتا طويلا. عندما عاد الزوج، لم تخبره باو - تاي بزيارة عدوه. كان يانغ عائدا من سفر، وقد

أمضى نهارا منهكا، فنام باكرا قليلا، واضعا رأسه على المخدة الشرقية. نهضت باو - تاي في الربع الأول من الليل:

ماذا تفعلين؟. سأل يانغ.

- «لأمر شخصي»، أجابت باو - تاي بتواضع.

ولما عادت، قالت:

- سيدي العزيز، أنا متوعكة قليلا، هل تقبل أن نتبادل مكانينا؟ أنام على الوسادة الشرقية، فلا أضايقك إن اضطررت للنهوض ثانية».

قبل يانغ كالمرغم وهو يهمهم، وقد كان نائما.

قبل الفجر بقليل، والليل حالك بعد، تسلل العدو إلى البيت. كان بيده سيف قتالي طويل. ذهب مباشرة إلى غرفة الزوجين، وبضربة واحدة خاطفة، قطع الرأس النائم على الوسادة الشرقية. عندئذ، انحنى ليرى يانغ عن قرب ميتا أخيرا. لكن رأى وجه باو - تاي الشاحب، وقد تبعثر شعرها الطويل. وأدرك أن الزوجة تبادلت المكان مع زوجها، وعرفت روحه وخز الضمير والرحمة.

حينذاك، بارحته الكراهية التي طالما كوت قلبه منذ سنوات طويلة. وعاهد نفسه على أن يضع حدا لعقاب جماعته الطويل، الذي مزق الأسرتين. وأصبح يانغ بالنسبة إليه من عظمه ولحمه. وهكذا، كانت هناك زوجة ضحت بحياتها من أجل زوجها، دون تردد، بلا تبجح وبلا كلام لا معنى له، وحلت المحبة بالحمية نفسها محل الكراهية، والسلام محل القتال. لكن هذا النوع من النساء نادر جدا. وهن أيضا معروفات، ومبجلات في الصين كلها، وربما خارجها.

هكذا رويت أشياء الماضي.

المشي هو زن
الجلوس هو زن
أن أتكلم أو أسكت،
بسلام أو بتهديد السيف،
في الأتما الأزلية
كل شيء دائم.

شودوكا
نشيد الساتوري المباشرة

الجرس الفضي الصغير

في ذلك الزمن، عاش في الريف، في ضواحي إدو (طوكيو اليوم)، راهب عجوز واسع الحكمة؛ كان معروفا حتى في أقاصي إمبراطورية الشمس المشرقة البعيدة، لورعه العميق، ومرحه الدائم. كان توشيبو يبتسم للجميع، ولكل شيء؛ ويتقبل حوادث الوجود غير المنتظرة بهدوء وصفاء تام. ذات يوم، جرؤ أحد تلامذته الأكثر مواظبة على أن يسأله:

«ما الذي يجعل قلبك فرحا حتى ليبدو أن لا شيء يفاجئك، لا برد، ولا حر، ولا عطش ولا جوع، ولا حتى خبث الناس؟

- سأبوح لك بسر، قال توشيبو. في كل مرة يقرع الجرس الفضي الصغير الذي تراه معلقا على بابي، أتمالك عن الرقص، لشدة مسرتي، وعِظم فرحي...».

لكن هذا التلميذ لم يكن طيب السريرة؛ رغم دلالات تقواه. كان حسودا، وغيورا من سعادة الآخرين. وعزم على سرقة الجرس الفضي الصغير، كي يعرف هو أيضا الفرح الدائم. ذات ليلة، سطا على جرس معلمه توشيبو، أخفاه تحت معطفه، وهرع إلى البيت. علقه منذ اليوم التالي على باب الدخول، وتهيأ لتذوق طعم سعادة لا توصف. عبثا. كان الجرس يطنطن عشر مرات كل يوم تحت ضربات الهواء، أو كلما دخل زائر إلى البيت. لا شيء. لم يحدث أي شيء، ولم يحس التلميذ بأي فرح؛ بل انتهى هذا الطنين، الذي ما كف عن ترقبه، بإرهاقه. وراح يظن في الليل أنه يسمعه. جعله الأمر يفقد طعم الأكل والشرب، وأضحى سريع الغضب. وساءت

حاله، حتى أنه قرر أن يرتمي عند قدمي معلمه متوسلا عفوه وإعادة الجرس الفضي الصغير إليه. ذات صباح، أحضر الجرس الصغير إلى توشيبو، وقد فاضت عيناه بدموع الندم. أعاد المعلم الجرس الصغير إلى مكانه فوق الباب بهدوء، ومنح عفوه. ولما تأكد التلميذ أن المعلم قد صفح عنه، سأله:

«أيها المعلم، أود أن أفهم لماذا كان هذا الجرس الصغير، الذي يمنحك من السعادة قدرا يجعلك تتمالك عن الرقص، مصدر غم لي؟

- السروة في حوش الدار»، قال توشيبو.

كان يلمح في ذلك إلى الطرفة الشهيرة التي يعرفها كل تلاميذ الزن:

«ما هو الزن؟ سأل التلميذ.

- شجرة السرو في الحوش»، أجاب المعلم.

الزن هو في الواقع «السروة في الحوش»، وأيضا «عصا» الشحاذ، هو «القصعة»، و «زبدية الأرز»، أو الجرس الفضي الصغير. الزن هو كل ذلك. إنه هنا وهناك، وهو ليس هنا، ولا هناك. الزن هو بداهة بسيطة تماما، مباشرة، وسر لا يمكن النفاذ إليه.

جرس المعبد سكت.
عند المساء، في أريج الزهور
استمر رنينُه

ماتسوو باشو (١٦٤٤ - ١٦٩٤) [٩٣].

معلمو الزن، عبر القرون،
ربما لم يعلّموا سوى شيء واحد:
لا تنسوا أن تكونوا سعداء!

القبرة والشمس

صوت سلس وواضح: «ترروي- إي- إي - إي، تري، تري...»، إنها القبّرة، نبّلة منطلقة نحو الشمس، ثملة بالضوء، جناحاها ممشوقان، وظهرها مخطط بالسواد، بطنها أصهب وناعم، وأبيض، قبرة الحقول.

«جذوة السماء الأخيرة، وأول وهج النهار»، كتب «رينيه شار» [٩٤].

«تررو - إي - إي - إي، تري - تري...»، هذا الصداح المنتظم، المتكرر، الدائب، المنبثق مع الفجر، ساحر. في سالف الزمان، تقول أسطورة يابانية: تهورت القبرة عندما أقرضت الشمس نقودا، ورفضت هذه أن تردها إليها! منذئذ، وكل يوم عند الفجر، تغرد:

«أيتها الشمس، أعيدي إلي مالي، زادي، نقودي!».

أحيانا، تغتاظ: «تررر- وي، إي إي إي إي إي، ترري-رري! ستعيدينه لي أخيرا أيتها البخيلة، الشحيحة!».

وأحيانا تنوح:

«ترروي-وي...بي-إي-إي-أو-أو، بي- إي أو أو أو، أيتها الشمس، أعيديها إلي بزور قِنَّبي، قمحي القمري، نقودي الجميلة!».

يا لهذا الإصرار! أبت إحدى عماتي أن تصدق، بعد حرب الـ ٤٠، موت ابنها الذي اختفى في أحد المعسكرات. كانت تذهب كل يوم، طيلة خمس وثلاثين سنة، إلى محطة الشرق، ترقب القطارات القادمة من ألمانيا، طالبة ابنها من مدير المحطة، من

الأرض كلهـا، من السـمـاء، من الله! وأيضـا تلك الأمـهـات الأرجنتينيات، «مجنونات ساحة مايو»، اللواتي يدرن كل خميس بلا كلل منذ خمس وعشرين سنة في ساحة بيونس أيرس، بعكس اتجاه عقارب الساعة، وبأيديهن لافتات بلا معنى تطالب بأولادهن، من الحكومة، والعدالة، والشمس، والله! «ترررروي-إي إي-إي إي...تري- ري...». بقنزعتها المستديرة قليلا، وجناحيها البنيين أبيضي الحواشي، ومنقارها الممدود إلى الأمام، تغرد، القبرة. تنشد الأمل الذي لا يُقهر، لا يلين. قبرة الحقول الصغيرة.

ماذا يجب أن نفعل لبلوغ اليقظة؟ يسأل التلميذ.

- ثلاثة أشياء، يجيب المعلم. الممارسة، والممارسة، ثم الممارسة.

الأمير تهو - تي والتنانين

تشغل التنانين حيزا عظيما من الطقس، والاحتفالات، والمتخيل عند الصينيين. وهي حيوانات خرافية، لها أجنحة، وذات مخالب، وتنتهي بذيل حية؛ من شدقها تقذف نارا، وجسمُها متعددُ الأشكال، عظاءات زاحفة، وأورال [٩٥]، تنانين تزحف أو تطير. هناك تنين ملك الشرق، وتنين ملك الغرب، وتنانين الأنهار الكبرى والصغرى، وتنانين المحيطات، وتنانين الجبال والسهول، وأيضا التنانين الفوانيس والأخرى الورقية، التي هي فتنة رأس السنة والعديد من الاحتفالات.

هنالك التنين الأصفر الصغير، والتنين الأكبر الأسود، المحبب، والخبيث، والشهم، والشرير...عالم كامل من التنانين.

أولع الأمير تهو - تي، منذ نعومة أظفاره، ولعا مفرطا بالتنانين. لم يكن يحب سوى الدمى والصور التي تمثلها. ملأ أبواه المتسامحان غرفته بكل التنانين التي يمكن تصورها: صفر، وحمر، وسود. لم يملّها قط، وكان أعزَّها نجوى إليه تنين قماشي في فمه تهديد مصطنع، لم يفارق ذراعيه ولا قلبه أبدا. ولما بلغ الرشد، وأصبح سيد ثرواته بعد وفاة والديه، كرس كل ما يملك ليحيط نفسه بالتنانين. استقدم إلى منزله أشهر المصورين، وأمرهم بزخرفة الأرضيات، والحواجز، والجدران، والسقوف حسب رغبته:

«لا أريد، قال لهم، سوى التنانين، حيثما يقع نظري».

وهكذا كان. لكن تهو - تي لم يكن بعد راضيا. استدعى

النحاتين الذين كانوا قد نحتوا التينين الذهبيين اللذين يزينان قصر الإمبراطور:

«أريد نسخة مطابقة عن هذين التينين، قال لهم. ثم، ستنحتون كل الأعمدة على شكل تنانين، وكل دعامات البيت أيضا. لا يهم الوقت، ولا المال، المهم أن يكون عملكم صارخ الحقيقة!».

بدأ الفنانون، والعمال، ومساعدوهم المهمة جميعا. لم ير أحد قط في منزل هذا الفيض من التنانين. كانت ترى في كل زاوية، وعلى كل موضع ناتئ صغير، وكانت من الدقة والكمال حتى لنخالها على وشك أن تنطق. لكن غلة الأمير تهو - تي لم تشف أيضا. استحضر أمهر نساجي المملكة. وطلب منه سبع ستائر حريرية، وتسع طنافس من الصوف، تمثل تنانين من كل الألوان: صفرا، وحمرا، وسودا، وبيضا، وحتى زرقا، وهي نادرة.... تم الأمر. وكان لا بد أن رغبة تهو - تي قد أشبعت. لكنه شكا في سره مرة أخرى:

«آه...، تنهد. أضحي بكل شيء كي أتأمل وجه تنين حقيقي!».

إلا أن التنين الأكبر، الذي يسكن عتمة غابات شمال الصين، كان في رحلة له عبر المقاطعة. سمع نَوح تهو - تي. ها هو أمير، فكّر، يحب التنانين فعلا، وقد أحاط نفسه بكل الصور التي يمكن تصورها، وكرس لنوعنا عبادة حقيقية. أريد أن أكافئه بجعله يلمح وجهي النبيل. اقترب من بيت تهو - تي، وأطل برأسه من نافذة البهو. كان عاشق التنانين، المستلقي باسترخاء على الوسائد العامرة بالتنانين اللطيفة، الصفر، والحمر، والبيض، يحلم. كان يستمتع برؤية التنين الأزرق الجميل، الذي يزين السقف، عندما

وقع نظره مصادفة على طيف كابوسي. كان وجه قبيح يطل من النافذة، وقد تدلى نابان من فمه الأدرد، الذي ظل يتلوى في تكشيرة بشعة. وزيادة في الرعب، كان الوحش يبتسم.

لما رأى الأمير تهو - تي تنينا حقيقيا، هرب مذعورا.

الفتاة الخُلْد

لسنا عادلين مع الخلد. صحيح أنه لا يرى جيدا، غير أن رؤيته بالغة التكيف مع بيئته تحت الأرض. شعره الرمادي، اللامع، الظريف، لا مثيل لأناقته. ماذا نقول عن قوائمه الصغيرة الشبيهة بالمجارف، التي تجمع بين الممتع والمفيد! باختصار، الحكاية هي حكاية آنسة خلد: تحفة، متعة، أعجوبة في السلالة الخُلدية. فكر والداها، الفخوران بذريتهما بحق، والميسورا الحال - لديهما، مِلْك رَقَبَة (٩٦)، وعدة متاهات من الممرات جيدة الموقع جدا - بتزويج ابنتهما الوحيدة من شخصية بارزة.

من يختاران؟ بناء على نصيحة سيد خلد عجوز، كان قد سافر كثيرا أيام شبابه، فكرا أولا بالشمس. فهذا النجم، ورغم أنه غير معروف جيدا لدى المناجذ (٩٧)، يثمنه بعض أصدقاء السطح، الذين يتحدثون عنه بكلام طَيب جدا. ولكن لا يمكن الارتباط بلا تروّ، فالأمر يتعلق بمستقبل ابنتهما المحبوبة. كما أن الوالدين استعانا بمحقِّق معترف به للحصول على معلومات أوسع حول الشخصية. وبعد أسابيع من البحث، قدم التحري تقريره:

إنها بلا شك نجم لامع جدا.

- آه! رد الأبوان، متأثرين.

- ولكن هناك نقطة تقلقني، أضاف التحري. تكفي غيمة واحدة لجعله باهتا، وطمسه، بل حتى لإخفائه.

- إذا كانت الغيوم أقوى من الشمس، فنحن نريد شابا غيمة صهرا لنا. اذهب وابحث عن شاب غيمة مرموق لابنتنا الغالية!

عاد المحقق، وجال بين الغيوم. بحث طويلا، وتفحص جيدا سحاب السماء العالي الرقيق، والغيوم الممتدة بعيدا والقريبة، حتى وجد أخيرا شابا غيمة، جميلا وحسن القوام، برداء أبيض وأهداب رمادية، أنيقة جدا. وبينما كان يتهيأ لإسماعه عرض والدي الفتاة المغري، هبت ريح مفاجئة، فبددت الشاب الغيمة، تفتت، واندثر. ورجع المحقق يائسا إلى تل المناجذ.

«حسنا، قالا باستغراب، خدعنا بالمظاهر، شاب ريح هو إذن الصهر الذي يلزمنا قطعا!».

ريح. ولكن أي ريح؟ الشَمْأَل، الشُلُوق، العاتية؟ الحَرور، الشِنوك، الرُخاء، شرقية مرتفعات الجزائر العالية، البورة التي تهب على الجزر السعيدة، الغربية الآتية بالأمطار، الجنوبية الغربية، الفون، الترامونتان، الشمالية الباردة والعنيفة؟ وبينما هو كذلك، وقد أخذه الدوار، لاحظ التحري شابا ريحا شرقية، قويا، يدفع جدارا ترابيا بعزم وإصرار. اجتذبه المنظر، والشاب الريح يهبّ، وينفخ، وينفخ حتى اللهاث.

«تستطيع أن تدفعني حتى الإنهاك، قال الجدار الترابي، لكنك لن تزعزعني، أنا أقوى منك!».

أمر لا يصدق! قال المحقق، هذا الجدار الترابي يقاوم، والريح أُرهقت وهي تدفع، عبثا. عليّ إعادة النظر في حُكْمي، ليست الريح هي الأقوى. لا يفيد أن أعود إلى تل المناجذ، أعرف جيدا ما سيقوله لي الأبوان: ابدأ المفاوضات مع هذا الجدار الذي لا يهتز، الذي لا يبالي بالشمس، ولا بالغيوم والرياح.

بدأت المحادثات. وكانت تسير على ما يرام عندما لمح المحقق

أن محادثه أخذ يتصدع أمام عينيه. انهار بقطع كبيرة، وتفتت، وتشقق، وسقط أخيرا، بعد أن أوهنه من الداخل تلٌّ مناجذ ضخم.

ماذا تظنون ما حصل؟

الفتاة الخلد، تزوجت شابا خلدا

«ماذا يفيد الدوران حول العالم؟ قال معلم الزن. ما تطارده بكثير من الحمية والحماس، هاهو هنا، منذ وقت مضى. فيك تكمن طبيعة البوذا».

المسطرين الصغير المسحور

توقظ فينا حكاية الزن، بغض النظر عما تقول، أصداء لطيفة، أصيلة، وتمهد الطريق نحو الأتما الخالدة.

كان هوو - هوان يتيم الأب. في عامه الثالث عشر، اعتبروه فتى معجزة. أحبته أمه حبا جما. كان كل واحد يتنبأ له بمستقبل لامع. سيغدو، مثلما تقتضي تقاليد الأسرة، علاّمة كبيرا، مثقفا محترما. خصه الحاكم بمكان شرف لديه. وذات صباح، في أثناء ذهابه المعتاد إلى المدرسة، صادف فتاة رائعة الجمال، اسمها تسينغ - نغو. وقع في حبها بسرعة البرق، وانقلبت حياته. هكذا فاجأت العاصفة المركب، فتغير اتجاهه كثيرا، وجنح نحو الشاطئ المجهول.

ونزولا عند إلحاح هوو - هوان، شرعت أمه تقوم بما هو مطلوب لدى أهل الفتاة. كانت تسينغ - نغو من أسرة أشراف. والدها، هو قيّم المعبد القديم، وقد انعزل في الجبل، بعد أن ترك بعض الأوامر. يجب على ابنته أن تعيش حياة مقدسة، وليس مسموحا لها أن تتزوج. لما عرف هوو ذلك، غرق في اليأس. كان غمه عنيفا، رهيبا، حتى أن أمه خافت على حياته. ولكن، ذات صباح، خرج من البيت، تائها في أفكاره، فإذا به يصطدم بأحد المارة، من الديانة الطاوية [٩٨]، اعتذر هوو، ورد عليه الرجل الورع بابتسامة. وكان في يده مسطرين صغير يحركه أمامه. سأله هوو عفويا:

«لماذا تمسك هذا المسطرين الصغير؟

- إنه شيء سحري، قال الرجل الورع، يجعلني أستطيع خرق الجدران، وقطف الأعشاب الطبية.
- هذا المسطرين الصغير يخرق الجدران؟
- نعم»، أكد الرجل الورع، وبرهن على ذلك فورا بأن ضرب به بناء قريبا.

كان المسطرين الصغير يدخل في الجدار كأن البناء قطعة من الزبدة. وجربه في عدة أماكن بالسهولة نفسها. كان هوو، الذي روح عن نفسه بعض الوقت، ينظر إليه بدهشة.

«إن كان هذا المسطرين يروق لك، أعطيك إياه»، قال الرجل الورع. وأراد هوو أن يدفع له ثمنا مناسبا، لكن الرجل أبى. ابتسم له، ومضى في طريقه.

في الأيام التالية، جرب هوو المسطرين المسحور في كل ما سنح له. خرق الحواجز، وثقب الجدران، ثم، لما أخذته الحميّا، حفر حتى حجارة الطريق. وذات مساء، وجد نفسه أمام منزل محبوبته. لماذا هو هنا؟ لم تكن فيه رغبة محددة، غير أن قوة لا تقهر كانت تدفعه. خرق أول جدار في السور، وثقب جدرانا وحواجز، وعبر البيت حتى غرفة الحسناء، حيث لمح تسينغ، التي كانت تقوم بزينتها الليلية. رقدت الفتاة. وانتظر هوو بقلب خافق، خائفا. أخيرا، عندما نامت تسينغ، تسلل إلى قربها، وتلحف بغطاء مطرز، ونام هو أيضا في حرم أنفاسها المعطرة. في الصباح، حينما جاءت الخادمة لإيقاظ سيدتها، وجدت الشابين نائمين بعفة أحدهما بجانب الآخر. ارتعبت، وصرخت، وسرعان ما أحاطت الخادمات والخدم المسلحون بالدخيل. عرفوه. إنه هوو، الطالب،

والمتعلم. أحبوا أن يصفحوا عنه، شرط ألا يعيد فعلته أبدا، وألا يرى الفتاة ثانية. لكن تسينغ بقيت في أثناء ذلك مستغرقة في أفكارها، وأحست بقلبها يهفو للشاب. وعلى رغم معارضة والدها، الرجل الورع المنعزل في الجبل، وعدم تفهم والدتها، وخجل أم هوو، التي حزنت لسوء سلوك ابنها، حدد يوم الزواج بعد أيام من ذلك، بعد تدخل عطوف من جانب حاكم المدينة.

لا نعرف إن كان الزوجان قد سعدا في هذا العالم، لأن تسينغ ماتت بعد العرس بوقت قصير. واختفى هوو بعد ذلك بأشهر. تهامسوا أنه أخذ المسطرين الصغير، وانتزع حجارة قبر محبوبته. واتحدا منذئذ إلى الأبد في القصر تحت بحر... الخالدين.

القرد الصغير

كان ذات مرة... قرد صغير يشبه قليلا، بذيله الطويل، ومظهره الماكر، وهُلّبة الشعر على طرفي أذنيه، قرد الهَبّال. عقب أي ظروف نزل في ميدان ياجيو تاجيما، معلم فن المسايفة الكبير؟. لا أحد عرف ذلك أبدا. ولكن، كان يحضر كل التمارين، ويختلط بالتلاميذ، ويحاول تقليدهم.

ذات صباح، وقف محارب متشرد على باب ميدان المعلم ياغيو تاغيما، والتمس شرف تلقي دروس المسايفة. وبرهانا على بسالته، عَرَض نِزال أي خصم يحدَّد له. ابتسم له المعلم، وقال:

«أقبلك تلميذا إن استطعت التغلب على قردي».

قبل المحارب، مندهشا، ولكن واثقا من نفسه. قدم لكل منهما سيف التدريب الخشبي، وأعطى المعلم إشارة النزال. حرك القرد سيفه بسرعة مجنونة فوق رأسه، وقفز قفزة خطيرة، فإذا به يستقر متوازنا على كتفي خصمه، الذي ارتمى سيفه، قبل أن يصحو. اغتاظ المحارب واضطرب، وانصرف.

راح يدرس فن المسايفة بشراسة: «كن - غوستو». وكرس له في معزله الصغير، وحيدا، أيامَه ولياليه. ومارس أيضا وضعة اللوتس: التأمل جالسا. هكذا كان يتقدم عبر الشهور على الطريق. وشيئا فشيئا، تخلص من أوهامه، وشكوكه، ودنيّاته. وتحرر من عجرفته، ومن الرغبة ومن الخوف، وتلاشى أناه، ولما رجع العقل عنده، دخل حالة التناغم الوادع مع الكون. وانقضت سنوات. وذات صباح وجد المحارب السابق نفسه أنه قد تهيأ.

ورجع إلى باب ميدان المعلم ياغيو تاغيما:

«جئت لنزال القرد»، قال بتواضع.

ذهبوا في طلب الهبال. أعطي سيفا خشبيا. تقدم الحيوان السريع والماكر. ولكن، لما لحظ القردُ المحاربَ السابق وقد أصبح ناسكا، أطلق صيحات حادة، ورمى سلاحه، وهرب راكضا.

«ادخل، قال المعلم، أهلا بك بين تلاميذي».

«بعد أن يتهيأ التلميذ، يأتي المعلم»، يؤكد قول الزن. عندما يستعد التلميذ حتى القرد يعرف ذلك.

شذرات من الزن

كم هي الحقيقة قريبة
ومع ذلك نبحث عنها بعيدا!
كذاك الذي في الماء يصرخ: أنا عطشان!
كابن الغني الذي يتيه في العوز.
هكوين إكاكو زنجي (١٦٨٥ - ١٧٦٨)

كم بدأتُ متأخرا في حبك، أيها الجمال
القديم جدا والجديد جدا!
كم بدأت متأخرا في حبك! كنتَ في داخلي، ولكن
للأسف كنت أنا نفسي خارج نفسي،
وفي هذا الخارج كنت أبحث عنك.
القديس أوغسطينس [٩٩].

«نعيش في النسيان، ونموت في الحلم»،
كان القدماء يقولون. يحمل الزن الضوء
إلى وجودنا. يساعدنا في رؤية كينونتنا
الحقيقية، واللامتناهي فينا...
من كلام الزن[١٠٠].

ملك التنانين يتزوج

يمكن أن نحب في أي عمر؛ حتى في الأوقات السوداوية، حين تنطفئ الجذوة في العينين، ويكلّ المخلب، ويتساقط ريش الجناحين، وتبيِّض السنون ذنَبَ الحية. وهكذا، وقع ملك التنانين، في عمر متقدم وشبه هرم، في حب تنينة عمرها ست عشرة سنة.

تزوجا. كان في عين السيدة بريق غض، ولها مخالب لبؤة حادةٌ جدا، وقد امتلأ جسمها بعُيَيّنات، فبدت كطلّ الربيع. اكتملت أفراح العرس، وعاد كل إلى بيته، حتى الأسماك، أوفى رعايا ملك التنانين. ضجرت العروس كثيرا، ومرضت. انتاب الزوج العجوز قلق مجنون، واستدعى لعلاجها أشهر الأطباء. كان التشخيص يدعو للتشاؤم. وكان لا بد أن يتابع المرض سيره الذي لا يرحم، فتموت الملكة، إلا إذا سلموا برغبة خبيئة طالما عذبتها.

رجا ملك التنانين زوجته:

«يا زوجتي الغالية، يا لؤلؤة عيني، ونشيد قلبي، أخبريني بما ترغبين، مهما يكن، أقسم على الملأ أن ألبيه».

بعد بكاء كثير وامتناع طويل، باحت الملكة الشابة بسرها:

«أرغب...، قالت بين شهيقين، في كبد قرد حي، أشعر أني سأتعافى بعد أن أتناوله!

- كبد قرد حي! صرخ زوجها. لا تفكري فيه يا خُلَّتي الحلوة! ليست لي سلطة على سكان الغابة، وفي هذا الوقت، حرْب...

- آه، يا سيدي، ناحت العروس الشابة. أنت لا تحبني! تأبى أن

تمنحني أول حظوة أطلبها منك...».

وأغمي على الملكة التعيسة، وقد أضناها الغم. أثارت مشاعر زوجها، بجسمها الفتي المقشور، الممدد على رمال الضفة، ورق قلب الملك العجوز لها، وقرر أن يلبي طلبها، بأي ثمن. استبعدت الحرب. واختار الدبلوماسية. استدعى قنديلَ البحر، أحدَ نبلاء بلاطه: مخلص، ومتفان، وغير خبيث كثيرا. في ذلك الوقت، كانت قناديل البحر أسماكا عادية، لها عيون، وزعانف، وذيل، وحتى قوائمٍ قصيرة، تتيح لها التنقل على الأرض اليابسة.

«أرسلك سفيرا فوق العادة لدى سكان الغابة»، أعلن ملك التنانين.

انحنى قنديل البحر، وقد امتلأت نظراته بالزهو:

«أنا رهن أوامركم يا مولاي.

- عليك أن تقنع قردا بالمجيء إلى بلادنا. لا تهم الوسائل. كلمه عن الثمار اللذيذة: الموز، وجوز الهند... قل له إنه سيعامل كأمير، وإننا نتمتع في بلادنا بصيف دائم...باختصار، ما تشاء. وعندما يصير تحت رحمتنا، ننتزع كبده، كي ننقذ الملكة!.

- أنا خادمكم!»، قال قنديل البحر، الذي خرج وهو يمشي القهقرى، مؤديا بالترتيب الانحناءات الثلاثة المألوفة، كما هو معروف، في بلاط ملك التنانين.

بعد رحلة استمرت ثلاثة أيام، وصل قنديل البحر إلى بلاد القرود. نادى أول قرد رآه يتأرجح فوقه بين أغصان شجرة جوز الهند:

«يا ابن القرود المحترم، قال. جئت من بلاد ملك التنانين، الذي يحكم البحر والشواطئ القريبة. يدعوك سيدي إلى بلاطه. سيستقبلك استقبال الأمراء، وسيقدمون لك الفاكهة اللذيذة: جوز الهند، والفوفُل[101]، والكاجو، وجوز الطيب، والبلح، والجوز الطازج والمجفف في أمان داخل أقبيتنا. في مملكتنا، الطقس صحو دائما، والناس لطيف معشرهم، ولن تجد بينهم قوما مقيتين!».

وسكت، لاهثا.

كان القرد يتسلى، ويتأمل قنديل البحر من أعلى غصنه. والحق يقال، كان مترددا... بدا هذا السيد القنديل فاضلا وبسيطا إلى حد ما، فلماذا لا يقدم على هذه المغامرة؟ قفز على الأرض.

«هيا، قال. أتشوق إلى زيارة بلدكم، وتحية مولاكم، ملك التنانين.

- يجب أن تعتلي ظهري، سنأخذ طريق البحر، الأقصر»، شرح القنديل بمودة.

بعد ساعات من السفر، ندم القرد على قراره المتسرع. البحر لا متناهٍ... والقنديل سابح بصمت. اعتراه قلق غامض خانق. وسعى لعقد حوار:

«قل لي، أيها الصديق العزيز، قال وهو يطلق ضحكة خفيفة، لماذا اخترتني أنا بالذات؟

- ملكتنا مريضة، قال القنديل ببساطة، يلزمها كبد قرد حي، أي قرد كان، كي تستعيد صحتها.

- أنا أرى...»، قال القرد.

اعتصر خوف فظيع جوفه. البحر حوله من كل جانب، ولا

يابسة على مد النظر. كان عليه اللجوء إلى حيلة كي ينجو بجلده.

«أرى...، كرر، وأضاف: لي الشرف أن أساهم بتواضع في شفاء ملكتكم».

وافقه قنديل البحر، ولم يكن خبيثا، على كلامه.

«سيسر بنا الملك»، فكر.

مضت ساعة من الصمت. كان القنديل يسبح، والقرد يفكر. فجأة، صاح:

«لكني فكرت في الأمر! هذا الصباح، قبل وصولك بقليل، علقت كبدي على غصن شجرة الكستناء. كنت أنوي اللعب بجوز الهند؛ والكبد شيء ثمين، فوضعته في مكان آمن. يا له من حادث طارئ! أنا في غاية الأسف!

- ماذا سنفعل؟، سأل القنديل. لن يغفر لي سيدي إحضار قرد بلا كبد إلى البلاط!

- قد يكون أكثر صوابا أن نرجع أدراجنا»، نصح القرد. قبل قنديل البحر. وسارا في الاتجاه المعاكس. ما إن وصلا، حتى نط القرد على أعلى غصن في شجرة الكستناء:

«لم أعد أرى كبدي، صرخ. لا بد أن مازحا أخفاه عني يا صديقي العزيز؛ عد الآن إذن إلى سيدك، وعندما تعود مرة أخرى سأكون قد وجدته بالتأكيد».

واختفى داخل الغابة، محييا بيده بمرح وارتياح.

ولما مثل قنديل البحر المسكين أمام ملك التنانين، انتاب السيد غضب رهيب:

«أنت لست سوى أحمق!»، صرخ، ونادى الحاشية لدقه كلحم عصيدة. نفذ الخدم الأمر جيدا، حتى أنه لم تعد في جسم قنديل البحر اليوم عظمة واحدة تامة. وهو الآن ذلك الشيء الهلامي المزود بخيوط دقيقة لاسعة، تسبب حروقا مؤلمة. ويعبر بذلك عن كرهه لجنس القرود.

يقال أيضا إنه يكن بغضا لجنس الثدييات كله.

أما ملكة التنانين، فلم تنل الكبد الذي طالبت به.

وكفت بعد ذلك عن التفكير فيه، وشفيت جيدا دونه.

تعليق

لماذا يتزوج الملوك من ملكات بالكاد بالغات؟
لماذا لدى العرائس الشابات
أهواء متهورة؟
لماذا ترتمي القرود بطيش
في مغامرات مجنونة؟
لماذا يقامر الماكرون بقناديل البحر
المتفانية والبسيطة،
ويعاقبها السيد، الذي خدمته
بأفضل ما تستطيع؟
لماذا العالم عبر أشكاله المتعددة
هو ما هو عليه؟
لماذا كل ذلك؟
أول حشرة قُطْرُب!*
عندما راحت، طارت،
بقي الهواء وحده في يدي [١٠٢].
«كل ذلك هو كوان كبير»، يقول معلم الزن.

ما هو الكوان؟.*

الكوان هو إحدى طرق الزن. وهو تدرُّب عقلي يدفعنا إلى التخلي عن طرق تفكيرنا العادية كي نتآلف مع مقاربة أخرى للواقع. بدلا من المقارنات، والمحاكمة العقلية، والمنطق، التي

تتيح الربط فيما بين الظواهر، فإن لا تبريرية الكوان، عدم لياقته، وحتى عدم معقوليته، تهزنا، تجبرنا على الانطلاق مباشرة نحو لب الأشياء، وتمنحنا الفرصة لتجربة جديدة، تجربة «اليقظة».

هاهي أمثلة كوانات شهيرة:

«ماذا كان وجهك قبل ولادة أبويك؟».

«تعرفُ الصوتَ الذي تحْدثه اليدان، ما هو صوت اليد الواحدة؟».

- «ما هو المبدأ الأساسي لبوذية زن»، يسأل التلميذ.

- السروة في الحوش.

- أيها المعلم، أتريد أن تشير بذلك إلى أن السروة، الشجرة التي تعمر طويلا جدا، ذات الأوراق الدائمة، والتي تكاد لا تعرف التعفن، ترمز إلى بوذية زن؟

- لا، ليست السروة رمزا.

- إذن، أيها المعلم، قل لنا، ما هو المبدأ النهائي لبوذية زن؟

- «السروة في الحوش».

حوار، لأول وهلة، لا معقول. ليست شجرة السرو استعارة، رمزا، مجازا، ولا يربطها ببوذية زن أي رابط عقلي، ولا تفسرها في شيء. إذن، لماذا هذه الإجابة من المعلم؟ ذلك من أجل أن يدفع التلميذ خارج عمله العقلي المعتاد. يجب تحريره، عليه ألا يعود يتكل على المنطق، على العقل، بل عليه أن يتلقى دون قَبْلِيّة sans à priori معرفة يفترضها الذهن وتسبق التجربة [المترجم] تقريبا دون فكرة السروة: أن يتقبلها كما هي. وهكذا، فذات يوم، قد ينال

الاستارة، وميض الساتوري، حدس ما هو قائم تحت لعبة المظاهر: الأتما الخالدة.

هكذا ملك التنانين وزوجته الشابة ذات الست عشرة سنة؛ وهكذا قنديل البحر الساذج والقرد المتهور، بل أيضا حشرة القطرب، وطراوة الهواء في راحة اليد المبسوطة... يمكن النظر إلى كل شيء ليس بما في شكله من طُرفة، بل بجوهره؛ بالنسيج الذي تتلاقى فيه خيوط كل وجود؛ بالتربة (الخصبة) التي يرقص فيها الإله شيفه [١٠٣]، يمكن اعتبار كل شيء كوانا كبيرا يدعونا إلى أن نميز الشاشة ما وراء الفيلم، وطبيعة بوذا في أصغر دويدة.

الراهب وشجرة الصنوبر المظلة

في الشرق المسيحي، إبان القرون الأولى، كان المستعمدون[١٠٤] هم أولئك النساك، الذين يقيمون صوامعهم في أعلى الأروقة أو الأعمدة المتهدمة. أشهرهم سانت سيميون الأكبر (نحو ٣٩٠ - ٤٥٩). تقول الأسطورة إن راهب زن قد قلد هذا النموذج. ولكن، لما لم يكن هنالك أروقة ولا عمُد، أو حبا في البساطة، فقد أقام على رأس شجرة صنوبر. هذه الشجرة، التي نجدها عادة على المنحدرات الصخرية والجبلية في جزيرة هونشو الكبيرة، أنيقة، وملولبة، وأوراقها جميلٌ خضارُها الغامق، متكورة في الأعلى، متخذة شكل المظلة. تتيح هذه الفرادة، عند اللزوم، أن تكون مسكنا مؤقتا، إن لم نقل لطيفا، ولا يخلو من مخاطر. كان أهل المكان يطلقون على الراهب، واسمه دوري، لقب «معلم عش الطير». عزم شاعر مشهور على زيارته. حين وصل إلى أسفل الشجرة، كان الراهب يمارس جلسة اللوتس (وِضعة اليقظة): الساقان منثنيتان (كل قدم على الفخذ المقابل)، والظهر مستقيم، والعينان شبه مغلقتين، والنظر يتوضع على مسافة نحو مترين إلى الأمام، واليدان في الحضن، راحتاهما إلى الأعلى، واليسرى على اليمنى[١٠٥]، وحيث يشكل الإبهامان قبة، متلامسين على نحو خفيف؛ والتنفس ثابت، منتظم، هادئ، والشفتان مضمومتان دون ضغط، واللسان متوضع على قبة الحنك، والانتباه مركز على الـ هارا hara، هذه النقطة التي تقع تحت السرة بنحو أربعة سنتيمترات؛ والذهن، أخيرا، مفعم بالصمت. إنه صمت الزن،

الذي ليس هو مجرد انعدام للأصوات، بل يتيح إدراك الجوهر، ويجعل الحياة والموت قريبين وأليفين، ويمزج وجودنا الصغير بالحياة الكلية، ويفتح فينا الباب السري، ودرب المطلق.

سأل الشاعرُ الملتزم بالعالم، والذي يفيض آمالا، ورغبات، ومخاوف، وجلجلة، وحرارة، وزهوا، معلمَ الزن:

«انتبه، قال. قد تسقط عن هذه الشجرة، جلستك خطرة!».

الصمت وحده أجاب.

كان على وشك أن يرحل، مغتاظا قليلا، عندما نطق الراهب الورع بهذه الكلمات: «يا صديقي، أنت شاعر، تعيش في الانفعالات والعواطف، وذهنك في حركة دائمة، أحسه قلِقا، معذَّبا. أنت الذي في خطر!».

حينذاك، ولما كان الزن ينتقل من ذهن إلى ذهن، ومن كائن إلى آخر، فقد عرف الشاعر عبوديتَه، وسجْنَ أناه. وتملكته رغبة عارمة في أن يتحرر:

«أيها المعلم، ماذا علي أن أفعل؟ سأل بتذلل.

- مارس الخير، ابحث عن وجهك الأصلي»، أجاب المعلم.

قال ذلك، وعاد إلى صمته.

هكذا روي.

«فلس» العندليب

هذه الحكاية هي اليوم من الماضي. كان ذات مرة شاب يعيش مع أمه في كوخ بائس. عزم على الذهاب إلى المدينة الكبيرة بحثا عن عمل. في الطريق، وبينما هو يتسلق قمة الجبل، فاجأته العاصفة. وهبط الظلام. لمح من بعيد ضوءا، فاتجه نحوه. وصل مبللا حتى العظام، وطرق الباب. استقبلته شابة باشّة، رائعة الجمال. كان صوتها الرخيم الصافي يزداد ارتفاعا، بسلاسة وعذوبة، فترقص له جُمَلُها: «ويك، تي-أوو، تي-أوو، تي-أوو...». قدمت له الطعام. وبينما هو يستعيد قواه، سألته الشابة.

«أرى، قالت بعد أن استمعت إليه، أنك تتمنى العثور على عمل في إدو، المدينة الكبيرة. لكني أعيش وحيدة هنا، هل تحب أن تشتغل عندي؟».

قبل الشاب.

صار الصبي يقطع الخشب، ويقوم بالأعمال اليومية، ويحرث الحقل. كان شجاعا ومستقيما، فقدرته المرأة. قالت له ذات يوم:

«عليّ أن أغيب بعض الوقت. تعرف أن هناك ثلاثة مستودعات خلف المنزل. أطلب إليك بوضوح ألا تدخل إليها أبدا، ولا حتى أن تنظر إلى داخل الثالث».

نفذ الشاب كلامها بدقة. لم يدخل قط إلى المستودع الثالث، ولم يلق عليه ولو نظرة عابرة. مرت سنة على ذلك. وذات صباح خريفي، قال:

«أود العودة لرؤية أمي، هل تعطيني إجازة؟».

قدمت له امرأة الجبل قطعة مغلفة بورق حرير جميل. «هذه أجرك، قالت. أعتقد أنك ستسر بها».

رجع الصبي إلى البيت. نزع الورق الحريري، فوجد قطعة نقود رائعة الصنع. لم يعرف ماذا يفعل بها، فمضى ليريها إلى مختار القرية، الذي صاح:

«هذه قطعة نادرة، يسمونها» فلس العندليب ، «لأن هذا الطير النبيل يستغرق ألف سنة في نحتها. أنا مستعد لشرائها منك بألف ريال».

قبل الشاب. وأصبح غنيا، وتزوج، وعاش سعيدا.

ولكن كان له جار يحسده. كان يكتوي رغبة في الحصول بدوره على «فلس العندليب». سأل الشاب كيف أمكنه أن يناله. وقدم له هذا الشرح اللازم بطيب خاطر. ذهب الجار الطماع إلى الجبل. والتقى بالمرأة، التي تعيش وحيدة. عرض عليها خدماته. وقبلته. راح يعمل بهمة ونشاط، عارفا أنه سيحصل في نهاية السنة على المكافأة العجيبة. ذات صباح، قالت له المرأة:

«سأغيب بضعة أيام. خلف المنزل، هناك ثلاثة مستودعات. عليك ألا تدخل إليها بأي شكل كان، ولا حتى أن تلقي عليها نظرة».

فكر الجار الطماع:

«لا بد أن المرأة تخفي كنزها في هذا المكان. غدا، سآخذ كيسا كبيرا، وسأملأه بالقطع العجيبة، وأصبح أغنى رجل في الأرض».

في اليوم التالي، بعد تأكده من أن امرأة الجبل قد رحلت، دخل إلى المستودع الثالث.

حينها، رأى في غرفة خاوية غصن شجرة خوخ عليه عندليب يغرد. ما إن لمحه، حتى طار الطير. واختفى المنزل في الحال. ووجد الجار الطماع نفسه يجلس في وسط كومة أدغال، وحيدا في الجبل.

هكذا سارت الأمور.

مو- شوتوكو، الذهن اللا نفعي.

«ذاك هو طريق الزن»، يقول المعلم.

الإصبع الذهبية

ذات مــرة من الزمن الماضي، كــان في الصين القــديمة نـاسك يمارس بعض السـحر. ذات يوم، زاره أحد أصدقاء الصبا، واسمه سيانغ - جو. كان الراهب الورع يعيش منذ سنين طويلة في قلب الجبل البعيد، وقد استقبل صديقه بترحاب وفرح بالغين. قدم له الطعام ومأوى النوم.

في اليوم التالي، قال له:

«أريد أن أقدم لك يا سيانغ - جو هدية تذكارا لأيام الشباب».

ولما أشار بإصبعه نحو حجرة كبيرة، تحولت إلى كتلة ذهب صاف. وبدلا من أن يبتهج الصديق بذلك، بدا عابسا ممتعضا، حتى أنه لم يشكره:

«أيها الراهب وي، قال، عانيت وتكبدت متاعب السفر الطويل كي أصل إليك في قلب الجبل العميق. فلماذا أكتفي بكتلة صغيرة من الذهب الصافي؟».

حينذاك، وقد أراد الناسك أن يسدي جميلا لصديق صباه، سدد إصبعه نحو صخرة ضخمة، فإذا بها كتلة من الذهب الصافي.

«آمل أنها أرضتك، قال ضاحكا، وأن يستطيع حمارك حملها!».

لكن سيانغ - جو لم يبتسم، وظل عابسا ممتعضا.

«ماذا تريد إذن؟»، سأل الراهب.

عندئذ، أخرج سيانغ - جو، رفيق الصبا، سكينا كبيرة من حزامه. قال «ما أريده، هو الإصبع».

آنشي

كانت ذات مرة...حماة (رابّة) مريعة، مثلما نجدها في الحكايات، ظالمة، شرسة الطبع، قاسية. استقبلت على كره الزوجة الأولى التي اختارها ابنها. كانت آنشي مع ذلك جميلة، وربما راقت كثيرا للرابّة. كانت ابنة سيد من البلاط الملكي، ومن سوء حظه أنه فقد حظوته عند الإمبراطور، ولزم أن تتزوج الصبية النبيلة من موظف معوز. كانت تحتفظ بالكثير من ملامح ألق الماضي، بشعرها الطويل، ولطف التصرف، وأناقة المظهر، ولؤلؤ الخدين، والقوام الرشيق. لكن الحماة لم تبال بكل ذلك، وأرهقت كنتها بأعمال البيت: الطبخ، والغسل، والكنس. ظلت الشقية تعمل بلا انقطاع طيلة اليوم، ولم تتلق مقابل ذلك سوى الكلمات الجارحة:

«هنا لستِ في البلاط، كانت الشريرة تصرخ. أنت محظوظة جدا أنك تزوجت من ابني، لا تنفعين في شيء، مغرورة، وقحة!».

كانت آنشي تسكت. في عصر هيان[١٠٦]، يشير القانون الياباني، في باب: «الطلاق»، إلى الأسباب المختلفة التي تبرر طلاق الزوجة، أي عارها، موتها الاجتماعي. السببان الأولان هما العقم والزنا؛ والثالث، وهو ما يعنينا هنا:

«قلة البر بالحموين». في الواقع، يضع هذا البند العروس تحت رحمة أسرة زوجها، والحماة بشكل خاص. لننوه، على سبيل الذكرى، إلى ثلاثة أسباب أخرى للطلاق تجعلنا في تفكير من أمرنا:

الغيرة. لنتذكر أنه كان للزوج، فضلا عن زوجته الأولى، الزوجة الرئيسية، حسب ثروته ومكانته، عدة زوجات أخريات، خليلات

في السر. في الواقع، لماذا كان على الزوجة أن تغار؟

الثرثرة (التي لا تبصّر فيها). معروف جيدا أن الرجل يتحدث، ويشرح، ويسهب، وأن المرأة تهذر، وتكثر من القال والقيل، وتثرثر...

المرض أخيرا. ما الفائدة من امرأة مريضة؟ الأجدى أن يتم التخلص منها.

ذات يوم، كانت الحسناء الشقية آنشي تطبخ أرز وجبة الأسرة، حينما انفجرت حماتها غاضبة في وجهها، دون سبب مقبول. بدت الكنة متجاهلة كلماتها الفظة، غير أنها سحبت من النار فجأة قطعة خشب ملتهبة ورمتها بعنف من النافذة؛ سقطت بالمصادفة على خروف عابر، فاشتعل صوف فروته. ذعر الخروف وركض إلى الأمام باستقامة وارتمى على كومة تبن، فاشتعلت. ولما كانت الريح قوية جدا ذلك النهار، فقد التهمت النار الاصطبلات والحظائر. هربت الأبقار والجياد البرية، ودمرت في هذه الفوضى بيت جار لهم. وكان هذا رجلا محبا للانتقام، فتشاجر مع صاحب الجياد، وهكذا امتدت الحرب من قريب إلى قريب، ومن قرية إلى قرية، ومن مقاطعة إلى أخرى، كالنار في الهشيم، وعاثت تخريبا في البلاد. هذا ما يمكن أن يولده شرّ حماة واحدة.

هكذا رويت أشياء الماضي.

الكرما[١٠٧]: قانون الأسباب والمسببات البوذي. الكرما هي مجمل أفعالنا البدنية أو العقلية، والثمرة التي تنتجها هذه الأفعال.

«تجعُّدُ جناحِ فراشةٍ يغير سيرَ النجوم».

من كلام الزن

أسطورة الوقواق

يصيح الديك الفرنسي، بالفرنسية: «كوكوريكو!»، والديك الألماني، بالألمانية: «كيري- كيكي!»، والديك الإنكليزي، مثلما ينبغي عليه، بالإنكليزية: «كوك-إي-دودل-دو!». هل تتكلم الديوك لغة بلادها أم أن البشر هم الذين يفسرون صياحها البريء على طريقتهم؟ يثير السؤال الضحك، ولكن هناك صياح لا يمكن بالتأكيد أن ننغمه كما نشاء: صياح الوقواق! في الواقع، كيف نحول، نعالج، هذه الموسيقى الثنائية، التكرارية، الواضحة جدا: «كو-كو...كو-كو...»؟. من سمع يوما صوت هذا الرشيق الطيران الربيعي، الرنان، يعرف جيدا أن الوقواق «يوَقْوِقُ»، لا أكثر. مع ذلك، في بلاد الشمس المشرقة، يؤكدون أن الوقواَق لا يقول «كو-كو...كو-كو...»، بل «كاكّو... كاكّو...». ويضيفون أيضا أن لذلك مبررا ممتازا.

منذ عصور وأزمان، طلب بابا كوكو ذات يوم من ابنته أن تحك له ظهره. وهذا ما لم يستطع القيام به بمفرده، رغم محاولات ليّ منقاره العقيمة واليائسة! كانت الآنسة تجتاز اضطرابات المراهقة. رفضت، بحجة أن بابا لا يحب كثيرا ثمة وقواق شاب، يظهر بثوب بني - أحمر وقُعُهُ سيئ يجعله يشبه أنثى الشاهين.

«مضحكة!، استشاط الأب غضبا، الوقواق الرمادي يرتدي اللون الرمادي!

- أنت لا تفقه شيئا في ذلك، هذا آخر زي!»، ردت ابنته.

باختصار أيا كان السبب، رفضت الآنسة وقواق أن تسدي هذه

الخدمة لوالدها. كان ظهره يحكه بشدة، فذهب ليفركه بصخرة مدببة، فانجرح. نتن الجرح. ومات. حكاية مؤسفة.... حزنت بنت الوقواق حزنا شديدا، منذ ذلك الحين وهي تردد: «كاكّو..كاكّو... !». ويعني ذلك باليابانية: «سأحك... سأحك...». نعم، سأحك ظهر بابا.

للأسف، فات الأوان!.

الندم جرح مفتوح. تأثيراته على الآخرين مؤذية، وعلى الذات أيضا. من المناسب، يقول الحكيم، أن يتحمل المرء مسؤولية أغلاطه، وأن يعرض إصلاحها، وأن يتجاوزها.

الزهور في الربيع، القمر في الخريف،
النسيم العليل في الصيف، الثلج في الشتاء.
نقّ نفسَك من كل فكرة لا نفع فيها
وسيغدو كلُّ فصلٍ نشوة لك.

مومون (١١٨٣ - ١٢٦٠)

معلم زن وشاعر صيني

السيد هان

كان السيد هان المحترم، وهو موظف كبير رفيع المنزلة، يستمتع في ريفه بخلوة محببة. لم يكن يكره العشرة، وغالبا ما كان يستقبل السيد سيو، هذا الجار الحلو المعشر. في ذلك اليوم، تحادثا تحت الظلال المنعشة. وبينما كانا يتناولان الشاي، ويأكلان بعض معجنات الأرز، سمعا صوت مشاجرة آتيا من المطبخ. استعلم السيد هان عن الأمر. كان راهب شحاذ يريد أن يستقبله صاحب البيت شخصيا!

«أصر بوقاحة...، شرح مدير القصر.

- دعه يأتي»، قال السيد هان.

لم يكن مظهر معلم الزن، الذي ارتدى ثوبا باليا وممزقا، يوحي بالثقة. ساءله السيد هان بمودة...

«وصلت أخيرا إلى قريتكم الصغيرة، قال الراهب البائس. أقيم في المعبد المتهدم، شرق المدينة. أخبروني عن سخائك، وهاأنذا أمامك!».

كان الرجل الرث الثياب يأكل من الطعام المفروش على الطاولة بكثرة، من دون أن يتوقف عن الكلام. ثمَّن معجنات الأرز المملحة والأخرى المحلاة. وبقي يمد يده بارتياح إلى الزبادي الخزفية، فيقضم بذور القرع وبذور عباد الشمس. ولم يتمنع عن تناول فطائر اللحم، فأكل منها ثلاثا، مطيبة بالسمسم واللوتس. وبين كل لقمتين، كان يلتقط بقايا اللوز والثمار الجافة، وسهَّل انزلاقَ كل ذلك بشرب الكثير من الشاي: عشرين فنجانا، مثلما حسبها

السيد سيو، الذي صدمته وقاحة الرجل.

بذلك، اعتاد الراهب على المجيء باستمرار إلى بيت السيد هان. كان يأتي عادة في أوقات الوجبة الخفيفة، فيدعو نفسه إلى المائدة، ويأكل ويشرب بكثرة حتى يشبع. كان السيد هان ينظر إليه وهو كذلك بابتسامة متسامحة. لكن السيد سيو كان يزداد غيظا منه يوما بعد يوم. وذات نهار بعد الظهر، وبينما كان الراهب يزدرد فنجان الشاي الثاني عشر ويقضم قطعة من معجنات الأرز اللذيذة، سأله السيد سيو بشيء من السخرية:

«أيها الرجل التقي، لقد أسعدنا، السيد هان وأنا، دوام مشاركتك لنا وجباتنا المتواضعة، هل تود أن تستضيفنا أنت بدورك؟».

أجاب الراهب بهدوء:

«تعالا في الوقت الذي تشاءان، تعرفان أني أقيم بين الأنقاض، ويصعب علي أن أقدم لكما أي شيء سوى الماء الصافي!».

وانفجر ضاحكا.

لما وصلا أمام أنقاض المعبد القديم، حيث أقام الراهب مسكنه، ذهل السيد هان والسيد سيو. فقد أنجزت فيه أعمال مهمة، ورمم البناء المركزي كله. دخلا إلى قاعة رائعة، حيث كانت بانتظارهما مائدة فرشت بغطاء مطرز. وامتدت أمام أعينهما المبهورة أطعمة وفيرة. وبعد أن جلس كل منهما على سرير، أشرف على خدمتهما بنشاط ستة عشر صبيا جميلا بثياب بهية وصنادل حمراء، منتظرين أدنى إشارة منهما. قدمت لهما، في صحون من البلور واليشب، فاكهة غير معروفة ولذيذة. وكان مضيفهما نفسه

يرتدي ثوبا من الحرير المقصب والذهب، ويصب لهما في كؤوس واسعة خمرا معطرة تليق بالخالدين.

فجأة، صفق الراهب بيديه:

«آتوني بالأختين شيه!»، صرخ.

هرع خادم، وعاد ترافقه فتاتان فاتنتان؛ كانت قامتاهما الغضتان تنثيان كشجرتي صفصاف. عزفت كبراهما على الناي، وغنت الأخرى بصوت صاف رقيق. ثم بدأتا ترقصان. كان ثوباهما يتموجان على الأرض، وقد غمرتهما سحابة عطر منعشة. شعر السيد هان والسيد سيو «بقلبهما ينفرج وروحهما تحلق». عندذاك، دعا الراهب الراقصة الصغرى للحاق به، بينما انحنت الصغرى ملوحة بمروحتها عليهما بلطف. كان السيد هان والسيد سيو، اللذان أخذهما ثمل خفيف ودوخهما الخمر العجيب الذي شرباه، ينظران إلى هذا المشهد مندهشين. انفعل الأول، السيد سيو:

«هذا الراهب وقح قطعا وقليل الحياء!».

ونهض متمايلا، غير أنه لما اقترب، كان الراهب قد اختفى، حينئذ، أضاءت السماء. وتلاشى الحلم. كان السيدان هان وسيو يحتضنان بلاطتين حجريتين باردتين، ومستلقيين بين الأنقاض والأبنية المهجورة والغرف المهدمة.

هكذا روي.

كل شيء في هذا العالم وهم. كل شيء في هذا العالم زائل. الطفل يختفي، واليافع يتلاشى، وماذا يبقى من الراشد، عندما تأتي الشيخوخة؟

كل شيء يتغير، كل شيء يمضي. أما أنت، أيا كنت، لست فقط تلك الكومة الصغيرة من الأسرار، والمخاوف، والرغبات، والصراخ، التي تسميها «أنا»، أنت حقيقة الواقع الخالدة، «TAT TWAM ASI»، «أنت ذلك»، الذي لا تموت، أنت المطلق، أنت اللامتناهي.

كل شيء يتغير، كل شيء يمضي، كل شيء يموت، و«الأتما» الخالدة وحدها تبقى.

شاو - شو

عندما سقط شاو - شو أحد الأيام في الثلج، استغاث: «أنجدوني! أنجدوني!». هرع راهب وتمدد بجانبه. عندئذ، نهض شاو - شو وانصرف.

«هل هذه حكاية؟، سأل التلميذ.

- نعم، قال المعلم.

- لكنها حكاية غير معقولة. سقط الشخص الرئيسي في الثلج، وبدا عاجزا عن النهوض. لماذا؟ هل هو طفل، عجوز، ذو عاهة، هل يعاني من شيء ما، أكان في حفرة موحلة؟ ظهر راهب، وبدلا من أن ينجده، ويمد له يده، تمدد بجانبه. هذا تصرف غير مفهوم، لا يعقل، سخيف. أليس هذا رأيك، أيها المعلم؟

- فكِّر، قال معلم الزن، هذه الحكاية هي كوان، يمكن أن تعينك في طريق اليقظة». بدأ التلميذ يبحث. ومضت الأيام، والتلميذ لم يفهم بعد هذه الحكاية. لنر إن كان شاو - شو قد جرح، كيف تسنى لمجرد وجود الراهب بجواره أن يشفيه؟ هل كان الراهب ساحرا؟ لنفترض، قال التلميذ لنفسه، إن شاو - شو لمح شبحا، «تنينا»، إن الخوف شله، إن تقوى وجود الراهب بجانبه مدته بالشجاعة، مكنته من الصعود خارج الحفرة. ولكن، حينذاك، ألا يشكر منقذه؟ مضى، لا مباليا، كما لو أن الراهب لم يكن موجودا! وهكذا، بذل التلميذ جهده عدة سنوات، قلّب المسألة في رأسه وعالجها مرارا. وتساءل: لماذا لم يستخبر الراهب عن وضع الضحية المتمددة بجانبه؟ وفقا لكل منطق، كان عليه أن يسأله:

«هل أنت جريح؟». بدلا من ذلك، تمدد بجانبه، ولم يساعده بأي طريقة، وهذا أمر غريب تماما. ونهض شاو - شو، متعافيا، بأعجوبة! حتى ليقال إنهما شخصان معلقان على طرفي بكرة، عندما يستلقي أحدهما، ينتصب الآخر؛ أو كأنهما دميتا عرائس تؤديان مشهدا صامتا، يتعذر أبدا حل رموزه.

ذات صباح، كان التلميذ يفكر مليا في حل الـ كوان حينما راودته رؤيا ساكياموني بوذا[١٠٨] جالسا على عرش السماء. كان الإله يقلّب بين أصابعه زهرة لوتس بهدوء. كانت الأسئلة تنطلق من حوله، وكان هو، التلميذ، ينظر إليه مبتسما وهو يقلب زهرة اللوتس بهدوء. عندئذ، اجتاز التلميذ «الباب حيث لا باب»، وفهم الحكاية التي تعذر عليه مغزاها منذ سنوات طويلة. عرف اليقظة[١٠٩]، عرف الحقيقة الخبيئة في قلب الأشياء. الـ كوان جدار تتحطم عليه كل الجهود الذهنية. كيف نفسر مثلا الطعم الحلو أو الطعم المالح؟

الطبل السحري

قدراتي الخارقة، قدراتي العجيبة؟
هي أن أغرف الماء، وأن أحمل الخشب.
بانغ يون (٧٤٠ - ٨١١)

عاش ذات مرة فتى اسمه جنكورو. كان صعلوكا، متشردا، متسكعا، يجرجر في الدروب أسماله، لا أب له ولا أم، ولا بيت يأويه. ذات صباح من أيام الصيف، استيقظ على ضفة نهر، واكتشف في أجمة طبلا سحريا صغيرا، تركه أحد آلهة الماء. فرح جدا بهذه النعمة غير المنتظرة. تناوله، وربطه إلى حزامه، وأراد أن يتحقق فورا من قدراته:

«طُل يا أنفي، طل!»، قال وهو يضرب على الطبل، وظل أنفه يطول، ويطول، وكلما ضرب على الطبل يزداد أنفه طولا، حتى اجتاز النهر بعد قليل، وأخذ يتسلى برفعه فوق قمم الأشجار على الجانب الآخر من الماء.

«اقصر يا أنفي، اقصر!»، قال وهو يضرب على طبله، وعاد أنفه إلى حجمه الطبيعي.

كانت لعبة مسلية جدا، بقي جنكورو، صاحب الروح الهزلية، يلعبها وقتا طويلا. كان يمشي وهو يفكر. قال لنفسه إنه إذا أجاد استعماله، فإن هذا الطبل السحري سيحقق له شهرة وثروة. مر في تلك الأثناء أمام منزل سيد كبير كانت له، كما قيل، بنت جميلة كالنهار، في عمر الزواج. راح جنكورو يحوم في الجوار، وطبله السحري معلق في حزامه. أخيرا، اكتشف فجوة في سور الدار،

فدخل. وبعد أن عبر عدة باحات، وجد نفسه في جناح الفتاة. رأى هناك شابة رائعة الجمال ليس لها مثيل إلا في الأحلام. كانت جالسة على حافة المسبح، تتأمل زهرة لوتس طافية على الماء. اقترب جنكورو، ودمدم، ضاربا على طبله السحري:

«اقصر يا أنف الفتاة، اقصر...».

صغر أنفها، وظل يصغر، حتى اختفى. ولما رأى السيد الكبير ابنته، صرخ مذعورا. لم يعد لها أنف، وبدا وجهها ممسوحا كأنه فطيرة. وا أسفاه، قال الأب المسكين، كيف سنزوج ابنتنا بعد الآن، وهي بهذا الشكل المشوه؟ لا بد من استدعاء طبيب يعيد لها أنفها وجمالها الزائل.

توالى على البيت النبيل أشهر أطباء البلاد، والشافون أيضا، والمنجمون والسحرة، وحتى المشعوذون. قبلوا بكل من وفد، أملا في حدوث معجزة.

في هذه الأثناء، حضر جنكورو. كاد الخدم يطردونه لمظهره الرث، غير أنهم نفذوا الأوامر، وأدخلوه هو الآخر إلى غرفة الفتاة، التي اختبأت خلف ستار. جلس جنكورو، وقال بصوت عال وهو يضرب خفية على طبله السحري:

«طل يا أنف الفتاة، طل!».

يا للأعجوبة، كلما تكلم وضرب على الطبل، برز الأنف، واكتمل، حتى عاد إلى حجمه المعتاد. فرح السيد الكبير جدا، وغمر جنكورو بالهدايا. وأقيمت على شرفه وليمة كبرى. قدموا له ثيابا جديدة، وتجهيزات كاملة، وهودجا وخدما. ومنحوه منزلا أيضا، والأراضي المجاورة. عاش جنكورو لبعض الوقت حياة كلها

مسـرات، ولو شـاء، لكان أثرى. ولـكن، سـرعـان مـا شـعـر بالـضيق. وذات صـبـاح، بعـد أن شكر السـيـد الكبـيـر على كـرمـه وحـسن ضيافته، غـادر المنزل، مفضـلا الفقـر وحـريتـه العـاتيـة على الغنى والمقامات.

«أيها المعلم، دلني على طريق الخلاص!

- من قيّدك؟. سـأل المعلم، سمّه لي!.

- لا أحد، قال التلميذ.

- إذن، لماذا تطلب الخلاص؟».

كي نقول إلى اللقاء...

كان راهب زن يتهيأ للكلام في ساحة القرية الكبيرة. حرر خطابه بعناية، وتأهب لقراءته، حينما هب هواء فجأة وألقى الأوراق على أغصان شجرة ليمون. باغته الأمر، ولم يعد يعرف من أين يبدأ كلامه، فقال:

«ها كم يا أصدقائي باختصار ما وددت عرضه عليكم: عندما أجوع، آكل، وعندما أتعب، أنام!

- ولكن أليس كل الناس يفعلون مثلك أيها المعلم؟. سأل واحد من الحشد.

- لا! ليس بالطريقة نفسها!

- لماذا، أيها المعلم؟

- عندما يأكل الناس، يفكرون في الكثير من الأشياء، وعندما ينامون، يفكرون بمشكلاتهم. لهذا لا يفعلون مثلي!».

حينئذ، نزل المعلم إلى وسط الناس، ورد على أولئك الذين كانوا لا يزالون يسألونه: «أما التفاصيل، فستجدونها على أغصان شجرة الليمون...!».

الهوامش

(١) باشو Basho: (١٦٤٤ - ١٦٩٤) راهب من أشهر مؤلفي الهايكو اليابانيين.

(٢) د - ت. ســوزوكي D-T Suzuki: «دروب الزن» Les Chemins du Zen, Albin Michel, Paris, 1995

(٣) راجع الأبيات، صفحة ٦١ [«الشاي ليس شيئا آخر سوى هذا»].

(٤) البط الملكي canard mandarin: الذي يزدان بثوب غزير ورائع الألوان، ويعتبر رمزا للإخلاص الزوجي الذي يصمد أمام المحن [المترجم].

(٥) الساموراي samoura: محارب ياباني من المجتمع الإقطاعي (منذ القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر) [المترجم].

(٦) قبعة قماشية تحيط بالرأس وتؤمّن حسن استقرار الخوذة عليه. وقد كانت جزءا من عتاد المحارب الساموراي المستعد للقتال، ويرمز إلى التصميم.

(٧) الشوغون هو القائد العام الياباني قديما [المترجم].

(٨) سوسيكي Soseki (القرن التاسع عشر).

(٩) الأتما L' Atma أو atman، كلمة سنسكريتية تعني المطلق، اللامتناهي، اللامحدود، الأزلي، الروح، الحقيقة الواقعية الوحيدة.

(١٠) جلسة اللوتس أو نصف جلسة اللوتس، حيث اليدان في الحضن والراحتان إلى أعلى، واليد اليمنى على اليسرى، أو العكس حسب التقاليد، والإبهامان ممدودان ومتلامسان قليلا. وضعة مناسبة. وتنفس هادئ.

(١١) هي اليوم مقاطعة هو - بي.

(١٢) ترجمة فرنسية غير منشورة لـ Cheng Wing Fun وHerv Collet.

(١٣) حكم يوان هان من ٤٨ إلى ٣٣ قبل الميلاد.

(١٤) رسالة في بوذي - دهارما (تان - لين).

(١٥) الفضائل الست: العطية (السخاء والرحمة)، والأخلاقية، والصبر، والطاقة، والتأمل، والحكمة المتعالية.

(١٦) الكرما Karma: كلمة سنسكريتية تعني أصلا الفعل أو العمل، وتشير إلى أن المرء يتحمل نتائج أعماله في هذا العالم وفي الحياة المقبلة، وتشتمل العبارة على معنى التناسخ [المترجم].

(١٧) فرنسوا الأسيزي (١١٨٢ - ١٢٢٦) Francois d'Assise: قديس إيطالي مؤسس رهبانية الفرنسيسكان. ولد في أسيزي. امتاز بتواضعه وبروح البساطة والفرح وحبه للفقراء. كان أثره الديني كبيرا في الغرب طيلة القرون الوسطى [المترجم].

(١٨) Kito: احتفالات أو طقوس أو جلسات استجابات الأماني.

(١٩) Ryokan, Pays natal، ترجمة Cheng Wing Fun وHerv Collet، موندارن Moundarren، 1994.

(٢٠) تسامبا tsampa: مزيج من الشاي والشعير المحمصين، المنقوعين والمعجونين بالشاي المبلل بالزبدة والملح. وهو وجبة تقليدية من بلاد التيبت.

(٢١) حفل الشاي الطقوسي Cha-no-yu: هو سلوى جمالية تتفرد بها اليابان من دون سواها، وتكون عند تقديم الشاي الأخضر، المطحون، المسمى «ماتشا» matcha وشربه.

(٢٢) Isabelle Coursin, Le Gout du Zen, Gallimard, Coll."Le promeneur", 1993

(٢٣) عيد الأموات Le bon: تُنظَّف القبور، وتُوضَع فيها الأطعمة والأشربة وتُحرَق الأحصنة الصورية، وعلى دخانها ترتقي الأرواح نحو الأعلى لتبلغ دار البقاء (Maurice Coyaud, Tanka, haiku, renga, le triangle magique, Paris, Les Belles Lettres, 1996).

(٢٤) نارا Nara: مدينة يابانية في جزيرة هونشو. عاصمة اليابان ٧١٠ - ٧٨٤، وتمثل حقبة نارا العصر الذهبي للحضارة اليابانية. وقد شهد الفن البوذي الياباني أوج ازدهاره في فترتها الأخيرة، المسماة «تمبيو» Tempyo، وتكشف تصاوير المخطوطات والستائر وسواها عن مدى رقة وأناقة فنون هذه الحقبة [المترجم].

(٢٥) الباغودا pagoda : معبد بوذي، وهو وحدة معمارية برجية الطابع قد يصل ارتفاعها إلى مائة متر. وقد نشأت أولا في الهند على شكل هرم مزخرف بالمنحوتات، وانتقل مع انتشار البوذية إلى الصين ثم إلى اليابان، حيث شيد من الخشب على شكل دائري من طوابق خمسة. وصممت الباغودا لتكون معابد أو مصليات أو مزارات أو ضرائح أو مباني تذكارية [المترجم].

(٢٦) هيان كيو Heian Kyo: هي اليوم كيوتو.

(٢٧) شاكو Shaku: إمبراطور الآلهة يقطن حسب الأسطورة في جبل سوميرو، الذي يقع في قلب العالم. ويحكم اثنين وثلاثين إلها مع مدنهم الغاصة بالثروات.

(٢٨) المشكال kaleidoscope: أداة تحتوي على قطع متحركة من الزجاج الملون؛ ما إن تتغير أوضاعها حتى تعكس مجموعة لا نهاية لها من الأشكال الهندسية المختلفة الألوان [المترجم].

(٢٩) جاء في الأساطير اليونانية أن الإله أبولو قد رزق من ربة الشعر كاليوبي باورفيوس، الذي أسلمته أمه القيثارة ومنحته موهبة الموسيقى. [المترجم].

(٣٠) D.T. Suzuki, Introduction to Zen Buddhism, Londres, 1960, cit□ par Thomas Merton, Zen,Tao et Nirvana, Fayard, 1970.

(٣١) Ryokan, pays natal مصدر سابق.

(٣٢) النزعة اللفظية verbalisme: الميل نحو الصيغ والألفاظ من دون عناية بالحقيقة والموضوع [المترجم].

(٣٣) المذهب العقلي intellectualisme: أي اتجاه يرد الحكم إلى الذهن لا إلى الإرادة، فلا يفسح في المجال للظواهر الوجدانية ولا الإرادية في الأعمال الذهنية [المترجم].

(٣٤) ترجمة فرنسية لموريس كويو .Maurice Coyaud, Tanka, ha□ku,renga مرجع سابق.

(٣٥) الصفائيون puristes: هم أولئك الكتاب الذين يميلون إلى التزام الدقة والصحة في التعبير، وفق ما تقرره قواعد الكلام المتعارف عليها في لغة ما، وربما أشار هذا المصطلح أيضا إلى مقاومة هؤلاء المؤثرات الأجنبية أو المحلية في لغة ما بحيث تترفع عن الرطانات والعجمة [المترجم].

(٣٦) ترجمة فرنسية لـ «ر. مونييه» .R. Munier, Ha□ku, (c) Librairie Arth□me Fayard, 1978

(٣٧) مصدر سابق.

(٣٨) مصدر سابق.

(٣٩) نوع من شجر البتوليات من المناطق الباردة والمعتدلة، يستخدم خشبها في صناعة الأثاث والورق [المترجم].

(٤٠) العبارة هي من رواية سوسيكي المعنونة Un oreiller dans l'herbe، ترجمها عن الإنكليزية Alan Turney, The Three - Corned World, Tuttle Tokyo, 1968. ذكرها موريس كويو في

Tanka, Ha□ku, Renga، مصدر سابق.

(٤١) ترجمة فرنسية لموريس كويو، ..Tanka, ha□ku, renga مصدر سابق.

(٤٢) مصدر سابق.

(٤٣) مصدر سابق.

(٤٤) ماتسو باشو □Cent Cinq Ha□ka، ترجمها عن اليابانية كوميكو موراوكا Koumiko Muraoka وفؤاد العتر، La D□lirante,1979.

(٤٥) مصدر سابق.

(٤٦) ترجمها إلى الفرنسية موريس كويو Tanka, ha□ku,renga مصدر سابق.

(٤٧) ترجمة فرنسية غير منشورة لـ Cheng Wing Fun وHerv□ Collet.

(٤٨) Ryokan, Pays natal - مصدر سابق.

(٤٩) المصدر السابق.

(٥٠) ريوكان Pays natal مصدر سابق.

(٥١) المصدر السابق.

(٥٢) قداسته الدالاي لاما الرابع عشر، قدرة الرحمة La Puissance de la compassion، ترجمه إلى الفرنسية Laurence E. Fritsch, Presses de la renaissance, Paris, 1997.

(٥٣) ترجمة غير منشورة لـ Cheng Wing Fun وHerv□ Collet. Calligraphie de Cheng Wing Fun.

(٥٤) ماتسو باشو، □Cent Cinq Ha□ka، مصدر سابق.

(٥٥) المصدر السابق.

(٥٦) المصدر السابق.

(٥٧) المصدر السابق.

(٥٨) المصدر السابق.

(٥٩) المصدر السابق.

(٦٠) الصعوة: جنس طير من فصيلة الدخليات، أصغر من العصفور الدوري، لا يكف عن الزقزقة [المترجم].

(٦١) المصدر السابق.

(٦٢) ترجمها إلى الفرنسية موريس كويو، .Cent Cinq Ha□ka□ مصدر سابق.

(٦٣) اليحمور حيوان لبون مجتر من فصيلة الأيائل [المترجم].

(٦٤) ماتسو باشو، □Cent Cinq ha□ka، مصدر سابق.

(٦٥) القطرب، حشرة من فصيلة مغمدات الأجنحة، تضيء في الليل [المترجم].

(٦٦) المصدر السابق.

(٦٧) ريوكان، pays natal، مصدر سابق.

(٦٨) المصدر السابق.

(٦٩) «مكثنا وقتا طويلا في غاية الصمت». باشو، زيارة لمعبد كاشينو.

(٧٠) ماتسو باشو، .□Cent Cinq Ha□ka، مرجع سابق.

(٧١) المصدر السابق.

(٧٢) المصدر السابق.

(٧٣) الاستشهاد «يحدث شيء ما»، لفيليب جاكوتيه، من مؤلفه Ha□ku, (□d. Et trad. Philippe Jaccottet), (c) □ditions Fata Morgana, 1996.

(٧٤) هونشو هي أكبر جزيرة في اليابان، وفيها طوكيو اليوم.
(٧٥) دايميو Daymio، سيد إقطاعي، كان الساموراي يعاهدونه على الإخلاص.
(٧٦) هي آن كيو، أو هيان كيو: «عاصمة السلام والهدوء»، كان هذا الاسم قد أطلقه «تيمو - تينو على مدينة كيوتو الحالية، عند تدشينه هذه المدينة العام ٧٩٤. و«كيوتو»، التي تعني ببساطة «العاصمة»، لم تطبق على هيان - كيو إلا في نهاية القرن الحادي عشر.
(٧٧) سوترا Sutra، عبارة سنسكريتية تعني «الخيط»، غير أن دلالتها تطورت، فأصبحت تعني «الخيوط المرشدة»، وهي مجموعة من النصوص الهادية في الهندوسية والبوذية [المترجم].
(٧٨) البواتو le Poitou، مقاطعة فرنسية قديمة [المترجم].
(٧٩) تمتد هذه الحقبة بين العامين ١٦٠٣ و١٨٦٧. فبعد سلسلة من الحروب الأهلية في اليابان، استولت أسرة توغوغاوا (أو طوكوغاوا) على مقاليد الحكم، وأسست أسرة جديدة، واتخذت من إدو (طوكيو الحالية) عاصمة لها. اتبعت اليابان خلال هذه الحقبة سياسة العزلة القومية، باستثناء ناغازاكي، التي بقيت مفتوحة للتجارة مع هولندا والصين [المترجم].
(٨٠) هايكو بوزون ترجمه فيليب جاكوتيه in Ha□ku، مصدر سابق.
(٨١) بالنسبة إلى يقظة تشاو - بين، انظر Le Zen de Robert Linssen, (c) Marabout,1969, p. 101.. كلمات نشيد العذراء هي من إعداد هنري برونل.
(٨٢) الساكي sak□: مشروب كحولي، يجري الحصول عليه من تخمير الأرز، ويقال أيضا جعة الأرز، ويشرب دافئا أو ساخنا [المترجم].
(٨٣) الـ سسهين Sesshin: عزلة زن، تستمر أسبوعا تقريبا، تمارس خلالها الـ زازن Zazen (التأمل في وضعية الجلوس) بصورة مكثفة.
(٨٤) «باب الخليج الصغير»: اسم مدينة طوكيو القديم، وقد استُخدم بين العامين ١١٨٠ و١٨٦٨.
(٨٥) الرفراف: طير صغير من القاونديات (alc□dinid□s)، منقاره طويل، يتغذى على الأسماك [المترجم].
(٨٦) ليات جمع لي li، وهو مقياس مسار صيني يعادل نحو ٥٧٦ مترا.
(٨٧) «اللامحدودات الأربعة» (shiguseigan) أو «النذور الأربعة الكلية الكبار»:
أيا كان عدد الكائنات الحية، أعاهد نفسي أن أنقذها جميعا.
أيا كان عدد الأهواء السيئة، أعاهد نفسي أن أتغلب عليها جميعا.
أيا كان عدد الدهارما dharmas (القوانين الأخلاقية)، أعاهد نفسي على تطبيقها كلها.
أيا كان كمال قانون بوذا، أعاهد نفسي على أن أطبقه.
(٨٨) هذا المقطع هو من كتاب مارغريت المعنون Les Yeux ouverts، حوارات مع Mathieu Galey (c) Centurion, 1980.
(٨٩) مارغريت دو كراينكور Marguerite de Crayencour، الملقبة مارغريت: أديبة فرنسية ولدت في بروكسل عام ١٩٠٢، شاعرة، وكاتبة روايات تاريخية «مذكرات هارديان»، وكاتبة مسرحية، وكاتبة سيرة ذاتية، تُقرأ فيها المشكلات الحديثة عبر الأساطير القديمة [المترجم].
(٩٠) Luscinial / luscinia rossignol progn□ عندليب العنادل، تغريده هو الأكثر موسيقية، والأغنى بين نوعه).
(٩١) هذه القصائد الأربع هي من الفلكلور الصيني (من القرن الثاني عشر إلى القرن السابع قبل الميلاد). ترجمها إلى الفرنسية «هنري برونل».

(٩٢) الخالدون هم شخصيات أسطورية، يمنون بهذا الوضع إلى مناقبهم الاستثنائية. يسكنون بحر الشرق، في قصر ذهبي. لبعضهم القدرة على طرد الشياطين.

(٩٣) هايكو باشو، ترجمة فيليب جاكوتيه، مصدر سابق.

(٩٤) رينيه شار René Char: شاعر فرنسي، اتسمت أعماله بالسوريالية ثم بالالتزام بـ المقاومة (الفرنسية)، سعى إلى التوافق العميق بين قوى الطبيعة والتطلعات البشرية [المترجم].

(٩٥) أورال، مفردها وَرَل: من الحيوانات الزحافة، طويل الخطم والذيل، لاحم، دقيق الخصر، قد يبلغ طوله مترين إلى ثلاثة أمتار. يعيش في آسيا وأفريقيا [المترجم].

(٩٦) مِلك رَقَبَة، هو المِلك الذي يعود ريعه إلى الغير [المترجم].

(٩٧) مناجذ هي جمع خُلْد، من غير لفظها [المترجم].

(٩٨) الطاوَية taoisme: ديانة ومذهب فلسفي صيني في الآن نفسه. أنشأه «لاو تزو «(٦٠٤ ق.م). ومعنى «طا» هو الطريق، الذي تشقه الأحداث في سيرها وتواليها المنتظم. [المترجم].

(٩٩) القديس أوغسطينس saint Augstine (٣٥٤-٤٣٠): من آباء الكنيسة المشهورين. ابن القديسة مونيكا. أسقف هيبون في الجزائر. لاهوتي وفيلسوف وكاتب كبير. قاوم البدع. حاول التوفيق بين العقل والإيمان. من آثاره «الاعترافات»، «مدينة الله»، «النعمة» [المترجم].

(١٠٠) «نشيد زازن»، لـ هكوين إكاكو زنجي، ترجمة Christian Bruyat in David Scott et Tony Doubleday, L'Essentiel du Zen,(c) Calman Lévy, 1998. جمل سان أوغسطينس هي من مؤلفه «الاعترافات»، الكتاب العاشر.

(١٠١) ثمرة الأريقة arec: هي شجرة من الفصيلة النخلية [المترجم].

(١٠٢) هايكو للشاعر عيسى، ترجمة فيليب غاكوتيه، مرجع سابق.

(١٠٣) شيفه: الإله الثالث في الثالوث الهندوكي، بعد براهما وفينشو. ويعني هذا الاسم بالسنسكريتية الميمون أو البشير. وأحد أتباعه الرئيسيين هو «تاندو»، معلم الرقص والمحاكاة، ومن ثم كان شيفه هو راعي الراقصين والراقصات.. [المترجم].

(١٠٤) المستعمد: ناسك كان يجعل صومعته في أعلى عمود أو برج، حيث يمضي حياته في التأمل [المترجم].

(١٠٥) في الهند، توضع اليد اليمنى على اليسرى، التي تعتبر غير طاهرة. في الصين واليابان، العكس. في الواقع، في هذين البلدين، تمثل اليد اليسرى بالين Yin: الهدوء، التناغم؛ وتمثل اليد اليمنى باليان Yan، الحيوية، العزم. خلال زازن، ينتصر الهدوء، واليد اليسرى على اليد اليمنى.

(١٠٦) عصر هيان (Heïan) القرنان العاشر والحادي عشر)، فترة ازدهار الفنون والآداب الكبيرة التي تقارن في فرنسا بقرن لويس الرابع عشر.

(١٠٧) كرما Karma: كلمة من أصل سنسكريتي، تعني أصلا الفعل أو العمل، وتعبر عن المبدأ القائل بأن كل فعل، حسنا كان أم سيئا، له جزاء يستحقه. وقد فسرت البوذية الكرما على أنها الرابط الخلقي بين السبب والمسبب في عالم الأخلاق [المترجم]..

(١٠٨) ساكيا موني بوذا Sakyamuni، عبارة تعني حرفيا «حكيم ساكيا موني، أي بوذا الأكبر [المترجم].

(١٠٩) اليقظة Eveil: خاتمة غفوة الجهل التي يستغرق فيها الإنسان العادي.



المترجم في سطور

محمد الدنيا، من مواليد حمص، سورية ١٩٥٠.

● حاصل على الإجازة الجامعية في اللغة الفرنسية، وآدابها، من جامعة حلب ١٩٧٤.

● يعمل أستاذا للغة الفرنسية في جامعة البعث (كلية البتروكيمياء، كلية الهندسة المعمارية، كلية العلوم).

● له عدة دراسات وبحوث تربوية وعلمية مترجمة في ميادين مختلفة، نشرت في الدوريات السورية والعربية، مثل: المعرفة - الحياة التشكيلية - الأسبوع الأدبي - مجلة «الثقافة العالمية» - العربي - العربي الصغير - الفيصل - صحيفة البيان - شؤون أدبية - الفكر العربي.

● صدرت له الكتب المترجمة التالية:

الأم والطفل - الطفل بين الصحة النفسية والإبداع - المرأة - الفهد (رواية مترجمة لألبرتو مورافيا، عن الفرنسية) - النمو البدني والذهني عند الطفل

● الطفل الرضيع.

المراجع في سطور

د. محمود غضبان رزوقي. لواء ركن دكتور متقاعد، ومستشار بوزارة الدفاع سابقا.

● من مواليد الكويت عام ١٩٤٧م.

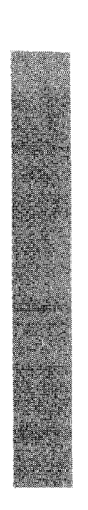
● حاصل على بكالوريوس فلسفة وعلم نفس، ماجستير علوم عسكرية، وعلى زمالة كلية القيادة والأركان الأمريكية وزمالة أكاديمية ناصر العسكرية، كما حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة العسكرية.

● له العديد من المؤلفات العسكرية الخاصة أهمها:

«الوصف الوظيفي للقوة الجوية»، بحث «استراتيجية التنمية الشاملة لدولة الكويت بعد حرب الخليج الثانية»، «الأمن الوطني الكويتي في ظل المتغيرات العالمية والإقليمية»، موسوعة الألعاب المائية، «علوم وفنون الألعاب المائية»، «حزاوي وغطاوي من الماضي».

● له تحت الطبع «الإرهاب وسقوط الدكتاتورية».

● من اللغات التي يجيدها الإنجليزية - الإيطالية - الفرنسية.



إصدارات قادمة

مسرحية
«المقهى»

تاليف : لاوشه

ترجمة : د . عبد العزيز حمدي عبد العزيز

مراجعة : د . تشانغ يو تشي

ترجمت عن اللغة الصينية

أسماء وكلاء التوزيع

الكويت

درة الكويت للتوزيع
شارع جابر المبارك- بناية النفيسي والخترش
ص. ب ٢٩١٢٦ الرمز البريدي ١٣١٥٠
ت: ٢٤٠٥٣٢١ - ٢٤١٧٨١٠/١١ - فاكس ٢٤١٧٨٠٩

دولة الإمارات العربية المتحدة

شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع
دبي، هاتف: ٣٩١٦٥٠١/٢/٣ - فاكس: ٣٩١٨٣٥٤/٥/٦
مدينة دبي للإعلام - ص.ب ٦٠٤٩٩ دبي

السعودية

الشركة السعودية للتوزيع
الإدارة العامة - شارع الستين - ص.ب ١٣١٩٥
جدة ٢١٤٩٣ هاتف: ٦٥٣٠٩٠٩

سورية

المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
ص. ب - ١٢٠٣٥
ت: ٢١٢٧٧٩٧ / فاكس ٢١٢٢٥٣٢

جمهورية مصر العربية

مؤسسة الأهرام للتوزيع
شارع الجلاء رقم ٨٨ - القاهرة
ت: ٥٧٩٦٣٢٦ - فاكس ٧٣٩١٠٩٦

المغرب

الشركة الشريفية للتوزيع والصحف
الدار البيضاء ص. ب ١٣٦٨٣
ت: ٤٠٠٢٢٣ - فاكس ٢٤٠٤٠٣١

تونس

الشركة التونسية للصحافة
تونس - ص. ب ٤٤٢٢
ت: ٣٢٢٤٩٩ - فاكس ٣٢٣٠٠٤

لبنان

الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات
بيروت ص. ب ٦٠٨٦ - ١١
ت: ٣٧١٩١٠ - فاكس ٣٦٦٦٨٣

اليمن

القائد للتوزيع والنشر
ت: ٢٠١٩٠١/٢/٣ - فاكس ٢٠١٩٠٩/٧

الأردن

وكالة التوزيع الأردنية
عمان ص. ب ٣٧٥ عمان ١١١١٨
ت: ٤٦٣٠١٩١ - فاكس ٤٦٣٥١٥٢

مملكة البحرين

مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف
ص. ب ٢٢٤ / المنامة
ت: ٢٩٤٠٠٠ - فاكس ٢٩٠٥٨٠

سلطنة عمان

المتحدة لخدمة وسائل الإعلام
مسقط ص.ب ٣٣٠٥ - روي الرمز البريدي ١١٢
ت: ٧٠٠٨٩٦ - فاكس ٧٠٦٥١٢

دولة قطر

دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع
الدوحة ص. ب ٣٤٨٨
ت: ٤٦٦١٦٩٥ - فاكس ٤٦٦١٨٦٥

الجزائر

المتحدة للنشر والاتصال
٢٣٨ شارع قي دو موبسان الينابيع
بئر مراد رايس - الجزائر
ت: ٤٤٧٦١٦ - فاكس ٥٤٢٤٠٦

دولة فلسطين

وكالة الشرق الأوسط للتوزيع
القدس / شارع صلاح الدين ١٩
ص. ب ١٩٠٩٨ ت: ٢٣٤٣٩٥٤ - فاكس ٢٣٤٣٩٥٥

جمهورية السودان

مركز الدراسات السودانية
الخرطوم ص. ب ١٤٤١ هاتف ٤٨٨٦٣١

نيويورك

MEDIA MARKETING RESEARCHING
25-2551 SI AVENUE TEL: 4725488
FAX: 4725493

لندن

UNIVERSAL PRESS & MARKETING
LIMITED.
POWER ROAD. LONDON W 4 SPY.
TEL: 020 87423344

الفهرس

الجزء الثاني

إبداعات عالمية

353

أجمل حكايات الزن
يتبعها فن الهايكو

تقدم سلسلة «إبداعات عالمية» في هذا العدد «أجمل حكايات الزن - يتبعها فن الهايكو» للكاتب هنري برونل. ويعرف «الزن» بأنه فلسفة أو مذهب اللاشيء، وهو سلوك ذهني وطريقة مختلفة لإدراك الواقع، وهو أن نرى الشيء مجردا من دون معرفة ذهنية قبلية، وبلا تشويش انفعالي، وقد ظهر وانتشر مذهب الزن في كل من اليابان والصين والهند.

يعتبر مذهب «الزن»، الذي يعني التأمل العميق للوصول إلى المعرفة وبلوغ الاستنارة، إحدى ثمار بوذية الصين، وقد أسس له الراهب الهندي بوديدارما، ونقله الراهب إيساي إلى اليابان.

وفي هذا الكتاب - الذي بين أيدينا - نجد الكاتب قد قسمه إلى جزأين: الجزء الأول، يتضمن إحدى وعشرين حكاية مليئة بالضحك، والمحال، والإثارة، والخشونة، وأيضا الحنان، والرحمة، وخوارق الأمور، والشعر والصمت... كما تبقى حصة اللامألوف دائما موجودة في هذه الحكايات. أما الجزء الثاني من الكتاب، فيتمثل في قصائد قصيرة تسمى«الهايكو»، وهو شعر الزن، وتنطوي هذه القصائد على صور من الطبيعة، أو على انطباعات حولها، مع كل ما تتضمنه من عادات وكائنات حية، على أن تكون المفردات يابانية أصيلة، كما تحمل الصور الشعرية في هذه القصيدة معنى أو معاني خفية.

وهذا العمل يعتبر الأول من نوعه الذي يترجم إلى اللغة العربية.

ردمك : 7 - 160 - 0 - 99906

رقم الإيداع : 2005/00008